٥

فى عصر الدول والإمارات

يبتدئ هذا العصر سنة ٣٣٤ للهجرة ، ويمتد حتى العصر الحديث ، وكان المؤرخون للأدب يدخلون منه نحو ثلاثة قرون فى العصر العباسى الثانى منتهين به فى سنة ٦٥٦ للهجرة ، حين أغار التتار على بغداد . وكانوا يسمون الحقب التالية لذلك حتى العصر العثمانى باسم عصر المغول . وهو صنيع خاطئ ، فإن الخلافة العباسية منذ سنة ٣٣٤ تتقلّص ظلالها ، حتى لا تكاد تمتد إلى ما وراء بغداد إلا امتداداً اسميًّا ، إذ انقسم العالم العربى دولا وإمارات ، كدول الفرس فى إيران وخراسان وأفغانستان ، وهى كثيرة ، ومثل إمارات البويهيين والسلاجقة فى العراق ، ومثل دول الفاطميين والأيوبيين فى مصر والشام ، بالإضافة إلى الدول الكثيرة التى نشأت فى الأندلس والمغرب . وكانت هذه الدول والإمارات مستقلة عن بغداد ، فمن الخطأ أن تُحْمَلَ عليها وتدرس تابعة لها فيما كان يدخل فى العصر العباسى الثانى من سنة ٣٣٤ إلى سنة ٦٥٦ . وحقًّا أن عصر الدول والإمارات بذلك يكون عصراً طويلا ، إذ يشمل أيضًا العصرين : المغولى الممتد من سنة ٦٥٦ إلى سنة ٩٢٢ والعصر العثمانى الممتد من سنة ٩٢٣ إلى مطلع العصر الحديث . وهو عصر تتعدد فيه الأقاليم والبيئات تعدداً واسعاً كبيراً ، غير أن هذا التعدد لم يحمل تفاصلا بين شعوب تلك الدول والإمارات فى الثقافة والشعر ، فقد كان الكتاب من الكتب فى هذا العصر الطويل يؤلف مثلا فى نيسابور بخراسان ويدرس فى بغداد ودمشق والقاهرة وتونس وفاس وقرطبة. وكان أحد العلماء فى تلك البلدان يشرحه ، وقد تؤلّف له فيها شروح كثيرة ، وبذلك كانت الثقافة العلمية مشتركة بين أهل كل تلك البلاد .

وبالمثل كان الشعر ، فلم يكن يظهر ديوان لشاعر كبير ، حتى يتلقفه النسّاخ والرواة فى بلدان العالم العربى ويذيعونه وينشرونه فى الناس ، وكأنه ديوان للأمة العربية جميعها لا لبلد بعينه . ولعل فى ذلك ما يصور — من بعض

الوجوه — وحدة الأمة العربية ، وحدة خالدة على مر العصور ، وهى وحدة كان الشعر دائمًا ترجمانها ومرآتها الصافية .

وهيأ ذلك لأن تظل العربية إلى اليوم اللغة الأدبية لكل البلدان العربية ، وحقًا أخذ الناس فى كل تلك البلدان يتحدثون بلغات غير معربة ، هى اللغات العامية التى تعددت بتعدد البيئات والأقاليم ، فلكل بيئة ولكل إقليم لغة عامية . ومن الخطأ أن نسميها لغات ، لأنه ليس لأىٍّ منها نحو ولا قواعد للنطق والتعبير . ولذلك لم تشارك الفصحى فى العلم ، بل ظل العلم فى كل البلدان العربية يدرس بالفصحى . وكما ظلت لغتنا العلمية ظلت لغتنا الروحية الدينية ، فهى لغة القرآن الكريم الذى كان يعلَّم فى الكتاتيب بالقرى والمدن ، وكان أئمة المساجد — ولا يزالون — يخطبون الناس ويعظونهم بلغته ، والمسلمون فى كل بقاع الأرض يؤدُّون بها صلاتهم . وكانوا يختلفون فى المدن الكبرى إلى حلقات الأساتذة فى المساجد حيث يلقون محاضراتهم فى التفسير والفقه وعلم الكلام وفى النحو والعلوم اللغوية وفى الأدب وفنونه النثرية والشعرية ، ومن وراء ذلك كانت المكتبات مفتحة الأبواب زاخرة رفوفها بالتراث من كل لون .

فكان طبيعيًّا أن تظل العربية حية فى كل مكان وأن تظل هى العملة اللغوية المتداولة بين جميع العرب على اختلاف بلدانهم ، وأن يظل الشعراء يتخذونها هى — لا العامية — لسانهم الذى يؤدون به عواطف شعوبهم وأهواءها . وحقًّا وُجد شعر عامى ، كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، ولكنهم كانوا يستخدمونه استخدام النوادر ، ولذلك جعلوه للهزل والتعابث . أما فى الجد وحين لا يكون الشعر فكاهة ، بل يكون احتمالا لتبعات الحياة ومشاركة فى مشكلاتها التى تخوضها الأمة ، فإنهم يستخدمون الفصحى . وكانت قريبة منهم ومن قلوبهم وأفئدتهم ، بل أيضًا من قلوب الأمة العربية وأفئدتها ، فهى دائمًا تلقاء الأسماع والآذان . وليس ذلك فحسب ، فقد كانت هى التى تغذى القلوب والأرواح ، بما تحمل من آيات الذكر الحكيم ، وما تحمل أيضًا من الأشعار التى تعبر أجمل تعبير عن وجدان الأمة وانطباعاته الشعبية . فلم تكن الفصحى ولا أشعارها ترتفع عن مستوى الشعب ، بل كانت تقترب منه قربًا شديداً ، ومن أكبر الأدلة على ذلك

أننا نجد لهذا العصر فى كل بلد عربى شعراء أميين لا يقرءون ولا يكتبون يشاركون مشاركة خصبة فى الشعر العربى ، غير واجدين فى ذلك أى مشقة أو أى عسر . ولن نستطيع أن نعرض فى هذا البحث المجمل لشعر هذا العصر فى مختلف بلدانه وأقاليمه ، ولذلك سنكتفى بالحديث عنه فى العراق ، وفى مصر والشام ، وفى الأندلس .

وأول ما نستقبل منه فى العراق شعر المديح ، وأكبر شعرائه هناك ، بل فى كل البلدان العربية وفى كل العصور على الإطلاق المتنبى شاعر الكوفة ، الذى كأنما عاش فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، ليستشعر المحن التى كانت تُصَبّ على رءوس الأمة العربية لعصره ، فإذا إمبراطوريتها الضخمة تتصدع وتتفرق دولا وإمارات شتى ، ويسلب الأعاجم العربَ صولجان الحكم ، ويعسفون بالناس عسفًا شديداً ، ويعيشون ببغداد للهو والقصف ؛ بينما البيزنطيون يغيرون فى الشمال ولا مغيث من جيوشهم ولا معين ، وبينما قرامطة البحرين يغيرون على مسقط رأسه الكوفة من حين إلى حين منزلين بها من الكوارث المفجعة ما تشيب له الولدان . ويبرحها فى مطالع شبابه إلى بغداد ، ويتركها مسرعًا إلى الشام وبواديها ونفسه تجيش بثورة عارمة على حكام بغداد وما يذيقون الشعب من الجور والظلم والعسف ، ولا يُخْفى ثورته ، بل يعلنها إعلانًا ، لممدوحيه ، وكأنه يريد أن يستنهضهم معه للقيام بثورة عنيفة ، على شاكلة قوله :

وإنما النـــاسُ بالملوك ومـــا تُفْلح عُرْبٌ ملوكُهـــا عَجَمُ
لا أدبٌ عندهم ولا حَسَبٌ ولا عهودٌ لهم ولا ذِمَمُ

فهو إنما يثور على الحكام الأعاجم من أجل العرب وإنه ليأسى لهم أن يرضوا بحكمهم وما ينزلونه بهم من عسف وقهر ، وإنه ليصرخ فيهم أن يزيلوا هذا الحكم الجائر ويسقطوه ، كى يعود الحكم عربيًّا كما كان ، وكى يتخلصوا من سلطان الرقيق الأعجمى الذى بغى وطغى ، وأحال حياتهم بؤسًا وشقاء وذلاً ومهانة . وتمر به فى أثناء هذه الثورة والدعوة الخطيرة فترات يأس كثيرة ، إذ يجد الناس من حوله لا يثورون ولا يفكرون فى ثورة ، وكأنما خدّرهم حكامهم الأعاجم ،

وكان من أشد هذه الفترات عليه الفترة التى قضاها فى قرية بالقرب من بعلبك تسمى « نَخْلة » إذ لم يجد عند أهلها أذنًا صاغية لدعوته ، فمضى ينشد محزوناً :

ما مُقامى بأرض نَخْلةَ إلا كمُقام المسيحِ بين اليهـــودِ
مَفْرَشِى صَهْوَةُ الحِصـــان ولكـ ـنَّ قميصى مَسْرُودَةٌ من حديد
أنا فى أُمَّـــةٍ تداركهـــا اللـ ـهُ غريبٌ كصالحٍ فى ثمـــود

وهو يقول إن الناس يصدون عنه كما كان يصد اليهود عن عيسى عليه السلام ، وكما صدت ثمود عن صالح عليه السلام ، وإنه ليقدم لهم المثل الحربى من نفسه ، فهو دائمًا على ظهر فرسه لابس درعه شاكى السلاح متصدّ للحرب والنزال ، فإما الحياة الكريمة وإما الموت الشريف . وكان تصويره لنفسه فى هذه الأبيات بالمسيح والنبى صالح سببًا فى اتهام بعض معاصريه له بأنه ادعى النبوة فى بادية الشام ، وهو اتهام باطل . وربما كان لقبه المتنبى الذى غلب عليه هو الذى جعلهم يظنون هذا الظن الخاطئ ، وهو إنما لقب به رمزاً لعبقريته الشعرية . وهو يعلن فى الأبيات أنه يتعمقه الشعور بالغربة ، وهو شعور يبدو أنه لازمه مبكراً ، وكان سبب مفارقته لمسقط رأسه ، ثم لبغداد والعراق جملة ، وهاهو فى الشام : حواضرها وبواديها ، لا يزال يشعر بالغربة ، إذ يرى الناس من حوله منصرفين عنه ، لا يستجيبون إليه ، كأنهم لا يريدون أن يزيحوا الظلم والعسف عن ظهورهم ، وما زال يستثيرهم مشعلا فيهم الإحساس بكرامتهم المهيضة من مثل قوله فى بعض مدائحه :

وإنما نحن فى جِيل سَواسيةٍ شَرٌّ على الحرِّ من سُقْمٍ على بَدَنِ
لا يُعْجِبَنَّ مَضِيماً حُسْنُ بِزَّتِهِ وهل يروق دفيناً جودةُ الكَفَنِ

فهو جيل يؤذى الأحرار من أمثال المتنبى الذين لا يطيقون رؤية البغى والطغيان فى الحكام والذين يسارعون إلى سيوفهم ليذيقوهم وبال طغيانهم وبغيهم . وحتى من يجد شيئًا من نعيم الحياة فى ظلهم ينبغى أن ينهض لقتالهم ، وكيف يجد هذا النعيم وهو مَضيم أشد الضيم ، إنه أشبه بميت ، فقد ماتت نفسه

العربية ، ولن تنفع ميتًا جودة كفنه ، ويصيح فى مدحة أخرى :

لا افتخارٌ إلا لمن لا يُضامُ ... مدركٍ أو محاربٍ لا ينـــامُ
واحتمالُ الأذى ورؤيةُ جانيـ ... ـه غذاءٌ تَضْوَى به الأَجسام
ذَلَّ مَنْ يغبط الذليلَ بعيشٍ ... رُبَّ عيشٍ أخفُّ منه الحِمامُ
مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهوانُ عليه ... ما لجُرْحٍ بميِّتٍ إيـــلامُ

فمن لحقه ضيم لا يحق له فخر ، لأنه يحمل نفسًا ميتة . إنما يفخر الحى المناضل الذى لا ينام عن ثأره ، والذى لا يحتمل الأذى ، بل يعصف بجانيه عصفًا . وما أمرَّ حياة من يحتمل الأذى والهوان ، بل إنها لأشبه بالموت . بل إن الموت لأخف منها احتمالا ، ويا ويح من يقبل الهوان مرة ، فإن إحساسه يموت ، ولا يعود يشعر بأى طعنات لذل أو هوان . والمتنبى إنما كان يريد بذلك — ومثله كثير فى مدائحه — أن يستثير أمته لما وقع عليها من ظلم الحكام وضَيْمهم لها ، حتى تعود إليها قوتها وبسالتها ، وتبطش بهم البطشة القاضية . وشعر المتنبى أو قل مدائحه من هذه الناحية تعد مصدراً قيمًا من مصادر التاريخ لعصره ، إذ يصور فيها ظلم الحكام وخسفهم وبغيهم تصويراً لعله أقوى من تصوير كتب التاريخ السياسى ، لسبب طبيعى ، وهو أنه شارك معاصريه حياتهم السياسية بكل أوزارها ، وأحسها إحساسًا قويًا ، وهو إحساس جعله يحمل تبعاتها إلى أقصى حد ، فإذا هو ينادى بالثورة على الحكام الأعاجم وتخليص الأمة منهم ، وظل يستصرخها ، لتثور معه ثورة عارمة وهو لا يهدأ ولا يفتر ، سنوات طوالا .

وكأنما أراد القدر للمتنبى أن يستريح إلى حين من عناء هذه الدعوة التى لا تلقى سميعاً ، وإذا هو يلتقى بسيف الدولة فى أنطاكية ، ويصطحبه معه إلى حلب ، ويظل عنده تسع سنوات . وكان سيف الدولة يدير حربًا طاحنة مع البيزنطيين ، وينزل بهم وبجيوشهم مزائم ساحقة ، ووجد المتنبى فيه بغيته ، إذ وجد فيه البطل العربى المثالى الذى كان ينشده ، فقد كان ينقضُّ من إمارته الصغيرة حلب على البيزنطيين وجموعهم فيمزقها شر ممزق . وكان المتنبى يغدو ويروح معه فى معاركه ، فيملؤه الفرح والابتهاج بالنصر ، ويمدحه لا بقصائد

ل بملاحم ، نسمع فيها قعقعة السلاح ودويّ المعارك من مثل قوله :

لقد أقام على أرْباضِ خَرْشَنَةٍ ... تَشْقَى به الرُّومُ والصُّلْبَانُ والبِيَعُ
للسَّبْيِ ما نكحوا والقَتْل ما ولدوا ... والنَّهْبِ ما جمعوا والنارِ ما زَرَعُوا
مُخْلًى له المَرْجُ مَنْصُوبًا بصارخةٍ ... له المنابرُ مَشْهُوداً بهـا الجُمَعُ
يطمِّع الطَّيْرَ فيهم طولُ أكْلِهِمِ ... حتى تكادَ على أحيائهم تَقَعُ

وهو يصور معركة سيف الدولة الحمدانى فى خَرْشَنَة من أرض البيزنطيين بما أنزل بضواحيها وساحاتها من سفك دماء الروم وتلطيخ صلبانهم وكنائسهم بعار الهزيمة الماحقة ، وما أسرع ما سُبيت نساؤهم وقُتل شبانهم ونُهبت أموالهم وحُرقت زروعهم ، واستسلمت له مدينة صارخة ، وأصبحت من ديار الإسلام ، ونُصبت بها المنابر لصلوات الجمعة . ويحمل البيت الأخير صورة رائعة ، فقد كانت الطير تنقضّ على البقية الباقية من أحياء الروم البيزنطيين تريد أن تأكلهم أكلا لَمًّا ، إذ عوّدها العرب أكل أشلائهم وجثثهم التى لا تزال تتناثر فى العراء . وفى غفلة من غفلات الزمن استولى الروم البيزنطيون على حصن الحَدَث ، فأعدّ سيف الدولة جيشاً كثيفاً زحف به من حلب ، والتقى به جيش الروم بالقرب من الحدث ، فهزمه هزيمة ساحقة ، قُتل فيها ثلاثة آلاف من الروم من بينهم صهر القائد فوكاس ، واستسلم للأسر ألوف . وأقام سيف الدولة على الحصن بين مباهج النصر حتى أعاد بناءه ، وهلل المتنبى لهذا النصر العظيم فى ميميته البديعة بمثل قوله :

وقفتَ وما فى الموت شَكٌّ لواقفٍ ... كأنك فى جَفْنِ الرَّدَى وهْوَ نائِمُ
تمرُّ بك الأبطالُ كَلْمَى هزيمةً ... ووجْهُك وضَّاحٌ وثَغْرُك بـاسِمُ
ضممتَ جناحيهم على القلب ضَمَّةً ... تموت الخَوافى تحتها والقَوادِمُ
نثرتهمُ فوق «الأُحَيْدِبِ» نَثْرَةً ... كما نُثِرَتْ فوق العروس الدراهم

وهو يصور بطولة سيف الدولة فى المعركة وجرءته التى لم تقف عند حد ،

حتى حين اشتدت الحرب ، وحمى وطيسها ، وبلغت الروح الحلقوم ، وأحدق الموت من كل جانب ، يقول له كأنما أخذتك حينئذ سنة من النوم ، وأبطال الروم يمرون بك مطعونين مجروحين فارين من هول المعركة ، وأنت مبتسم مستبشر واثق بالنصر ، ولم تلبث أن ضممت جناحى الجيش البيزنطى إلى قلبه ضمة مظفرة ، وكأنما هو بيدك طائر أو طير تقطعت خوافيه من الريش وظواهره ، طير مذبوح منتوف ، نثرته أنت وجيشك على جبل الأحيدب ، حتى لكأنه نثار من الدراهم نثرتموه فوق زفاف هذا النصر البهيج ، كما تنثر الدراهم فوق العروس فرحًا واستبشاراً . ودائمًا يتراءى له سيف الدولة بطلا للعروبة فى عصره . وكأنما اختارته ليمثل بطولتها وفتوتها وشجاعتها ، أو كما يقول له :

إذا العربُ العَرْباءُ رازتْ نفوسَها فَأَنت فتاها والمليك الحُلاحِلُ

ورازت : اختبرت . والحلاحل : السيد الشجاع . وقد حفر المتنبي فى ذاكرة العرب بهذه الأشعار ، حفراً لا يُنْسى ، انتصارات سيف الدولة البطل العربى على البيزنطيين ، انتصارات جعلتهم يستسلمون له مراراً عن يدٍ وهم صاغرون .

وواضح أن المتنبي صَوَّر فى قصيدة المديح الانطباعات الشعبية فى نفوس معاصريه إزاء بطولة سيف الدولة وجيشه الباسل ، وأيضًا إزاء حكم الأعاجم الطغاة وعسفهم وبغيهم ، وله فيهم هجاء كثير ، وهو ليس هجاء شخصيًّا ، وإنما هو هجاء سياسى أراد به تصوير مثالبهم وتهوين شأنهم عند الشعب حتى يثور عليهم ثورة لا تبقى منهم باقية ، من مثل قوله :

ودهرٌ ناسُــه ناسٌ صِغــارٌ وإن كانتْ لهم جُثَثٌ ضِخامُ
أَرانبُ غير أَنهمُ ملــوكٌ مفتَّحــةٌ عيونهمُ نيــامُ
بِأَجْسَامٍ يَحَــرُّ القَتْلُ فيهــا وما أَقْرَانُهــا إلا الطعــامُ
وخَيْلٍ لا يَخِرُّ لهــا طعينٌ كأَنَّ قَنَا فواسهــا ثُمَــامُ
ولو لم يَعْلُ إلا ذو مَحَــلٍّ تعالى الجيشُ وانحط القَتَامُ

وهو يصف ملوك الأعاجم المتحكمين فى بغداد بأن نفوسهم صغيرة وإن بدوا فى أجسام ضخمة ، إنهم أرانب تسنَّموا فى غفلة الدنيا ذروة الملك ، ويخيل لمن يراهم أن عيونهم ونواظرهم مفتوحة ، وهى فى نوم عميق ، كأنهم مخدَّرون ، لا يعرفون شيئًا من شئون الدولة ، وهم دائمًا فى لهو عنها ، يأكلون ويشربون ويقصفون ، ويموتون من كثرة القصف والشرب والأكل ، لا كما يموت الشجعان فى الحروب ، فهم جبناء أوغاد ، وتلك خيلهم لا يسقط لها جريح فى حرب ، ومن يركبونها منهم لا يحملون قنًا ولا رماحًا ولا سيوفًا ، وإنما يحملون أعواداً من شجر الثمام لا تغنى فى حرب ولا قتال .. وإنه لواجب على الشعب أن يثور بهم ثورة تأتى عليهم ، ولا يغرّنَّ أحداً علو مكانهم وارتفاعه ، فهو علوّ الغبار على الجيش لا يلبث أن يتبدد ويذهب هباء . ويقول فيهم غاضبًا :

فى كل أَرضٍ وَطِئْتُها أُمَمٌ تُرْعَى بِعَبْدٍ كأَنهم غَنَمُ
يستخشنُ الخزَّ حين يَلْبَسُهُ وكان يُبْرَى بِظُفْرِه القَلَمُ

وهو يستنهض العرب الأحرار لكى يتخلصوا من حكم عبيدهم الذين قهروهم واستذلوهم ، وجعلوا حياتهم جحيماً لا يطاق من البؤس والشقاء ، وسلبوهم إنسانيتهم ، حتى لكأنهم غنم سائمة لا حول لها ولا قوة . ويسخر المتنبى سخرية مرة من هؤلاء الحكام الذين كانوا لا يعرفون سوى المعيشة الخشنة الجافية ، بل المعيشة الوحشية التى تطول فيها الأظفار ، فإذا هم يتقلبون فى الحرير والنعيم ومتاع الحياة ويفرضون على العرب أو قل الشعب البؤسَ والعناء ويملئون الأرض شرًّا وبغيًا وطغيانًا . وعلى هذا النحو كان المتنبى لا يزال ينزل على الحكام الأعاجم بسياطه ، مصوراً شقاء الرعية واستذلالها وفساد الحاكم . وكل ذلك ضمنه قصيدة المديح ، التى تصبح عنده مرآة لحياة الأمة السياسية والاجتماعية والحربية ، وليس ذلك فحسب فإنها تصبح أيضًا مرآة للروح العربية الخالدة على مر التاريخ ، إذ صور خصالها من العزة والكرامة والإباء والفتوة إلى أقصى حد فى مثل قوله :

وإنى لمن قوم كأَن نفوسَنـــا بها أَنَفٌ أَن تسكن اللَّحْمَ والعَظْمَا

فلا عبرتْ بى ساعةٌ لا تُعِزُّنى ولا صحبتْنى مهجةٌ تحمل الظُّلْما

وهل أغلى من النفوس ؟ إن العرب ليقدمونها مبتهجين مغتبطين فداء لكرامتهم وأنفتهم وعزتهم وكبريائهم القومية ، ولا يكاد المتنبى العربى يتصور ساعة أو لحظة لا يقوم فيها بعمل يعزُّه عزَّةً قَعْساء . وإنه ليدعو دعاء مخلصًا أن لا تمر عليه ساعة أو لحظة لا تعزُّه ، بل إنه ليدعو على نفسه بالموت إن قبل ظلمًا أو رضى عَسْفًا . ويقول :

عِشْ عزيزاً أَومُتْ وأنت كريمٌ بين طَعْنِ القَنا وخَفْق البُنودِ
واطْلُبِ العِزَّ فى لظَى وذَرِ الذُّ لَّ ولو كان فى جِنـــان الخلـــودِ

وذلك دستور العربى ، لا يقبل الذل ، بل دونه الموت الزُّؤام فى ساحة الحرب والنزال ، لقد خُلق لكى يعيش عزيزاً ، وإنه ليؤثر العزة ولو كلفته العيش فى الجحيم وبين نيرانها الموقدة . أما الذل فإنه يرفضه ، حتى لو كان فى فراديس الجنان لرفض الحياة فيها غير آبه ، بل سعيداً كل السعادة . وحقًّا المتنبى عربى صميم ، وهو لذلك لا يزال يجسد لأمته مثلها العربية شعارات باثًّا فيها دائمًا روحها الخالدة ، روح الفتوة والقوة ، وهى روح كان يستشعرها فى أشد ما يكون من البأس والمضاء حتى ليصبح أحيانًا وكأنه أسد ضار ، على نحو ما وصف نفسه فى قوله :

وفى الجسم نفسٌ لا تشيبُ بِشيْبِه ولو أنَّ ما فى الوجه منه حِرابُ
لها ظُفُرٌ إن كلَّ ظُفْرٌ أعِدُّهُ ونابٌ إذا لم يَبْقَ فى الفم نابُ

فهى نفس فتيَّة يحملها جسم عات ، حتى لكأن ما فى وجهه من شعرات حرابٌ مصلتة على الأعداء ، وهى نفس أسدية تنشب أظفارها فى أعدائه ، حين لا يجد سيفًا ، وتكشِّر عن أنيابها حين لا يجد رمحًا ، نفس صلبة أشد ما تكون الصلابة ، هى النفس العربية التى طالما دوَّخت الأمم وفرضت عليها السيادة والسلطان . وفى الحق أن العربية لم تعرف شاعراً تمثَّل روحها كما تمثَّلها المتنبى ، وهو تمثل ليس له سابقة فى الشعر القديم ، وفى أى شعر عنده تمثَّل تلك الروح ؟ فى شعر المديح الذى يحمل عليه كثير من المعاصرين ، لأنهم لم يدرسوا الشعر

العربى دراسة متئدة ، ومن أروع الأشياء أن يقرأ الشباب المتنبى ليملأ نفوسهم قوة وصلابة ومضاء وأنفة وعزة .

ونترك المديح عند المتنبي وما طُوى فيه من هجاء سياسى وطوابع مختلفة للروح العربية إلى الرثاء ، ونختار منه فى العراق لونًا سياسيًّا يتصل بطبقة شعبية كبيرة ، ونقصد رثاء الشيعة للحسين ، وكان له موسم فى عاشوراء من كل عام ، وكان أول من دعا إلى ذلك معز الدولة البويهى حاكم بغداد إذ أمر الناس فى سنة ٣٥٢ للهجرة أن يحتفلوا بيوم عاشوراء بغلق الأسواق ونَصْب القباب وتعليق المسوح السوداء عليها ، وخرجَ النساء مسودّات الوجوه منشورات الشعر ، قد شققن الثياب ، ومضين يَدُرْن فى بغداد وينحن ويلطمن وجوههن على الحسين . وبالمثل احتفلت كربلاء باليوم على تلك الصورة المحزنة . وظلت تلك العادة طوال العصر ، وكانت تُقام معها مآتم كبيرة ينشد فيها الشعراء مراثى للحسين وأبيه على بن أبى طالب وأئمة الشيعة المقتولين . وكان يقوم على النواح قوم عُرفوا به ، وكانوا ربما ناحوا بمساجد بغداد والكوفة فى أيام أخرى غير يوم عاشوراء ، ومن كبار الناحة ببغداد فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى أحمد المزوّق الناثح ، ويُرْوَى أنه ناح يومًا فى أحد مساجد بغداد بقصيدة الشاعر الشيعى الناشئ الأصغر ، وفيها يقول :

بنى أحمدٍ قلبى لكم يتقطّعُ ... بمثل مصابى فيكمُ ليس يُسْمَعُ
عجبتُ لكم تَفْنَوْن قتلا بسيفكم ... ويسطو عليكم مَنْ لكم كان يَخْضعُ
كأَن رسول الله أوصى بقتلكم ... فأجسامُكم فى كل أرضٍ تُوزَّعُ
فما بُقْعةٌ فى الأرض شرقًا ومغربًا ... وليس لكم فيها قتيلٌ ومَصْرَعُ

وتوزع : تفرّق . وكان الناشئ الأصغر حاضراً فلطم لطمًا كثيراً على وجهه ، وتبعه أحمد المزوّق الناثح والحاضرون جميعًا ، وظلوا ينوحون بأبيات القصيدة حتى صلاة الظهر . وللناشئ قصيدة ثانية بائية كانوا ينوحون بها لعصره فى بغداد وفى مشهد الحسين بكربلاء ، وفيها يدعو للثأر من قتلى الحسين وأبيه على بن أبى طالب بمثل قوله :

رجائى بعيدٌ والممات قريبُ ويخطئُ ظنِّى فيكمُ ويُصيبُ
متى تأخذون الثأر ممن تألَّبوا عليكم وشبُّوا الحرب وهْى ضروبُ
فذلك قد أدْمَى ابنُ مُلْجَمَ شيْبَهُ فخرَّ على المحراب وهْو خَضِيبُ
وهذا توزَّعْنَ الصوارمُ جِسْمَهُ فخرَّ بأرض الطَّفِّ وهْو تَرِيبُ

وأرض الطف : كربلاء . وتريب : معفَّر بالتراب . وهو يشير إلى مقتل على بن أبى طالب وامتداد يد ابن ملجم الآثمة إليه فى الظلام بطعنة مُصْمية ، وهو يصلى الصبح جماعة فى المحراب والناس مؤتمّون به ، كما يشير إلى مقتل الحسين الفظيع دون شفقة أو رحمة . وكان الناس ينوحون فى المشهد بكربلاء بالقصيدة جميعها . وتكاثرت منذ هذا الحين مراثى الحسين مع الزمن ، ومن أهمها مراثى الشريف الرضى ، وهى تقطر أسى وحزنًا ولوعة من مثل قصيدته التى أنشدها بكربلاء على قبر جده الحسين ، وفيها يقول ملتاعًا :

يا قتيلاً قوَّضَ الدهـرُ بِـهِ عَمَدَ الدين وأعلامَ الهُدَى
مُرْهَقًا يدعو ولا غوْثَ لـهُ بأَبٍ بَـرٌّ وجَدٌّ مُصْطَفَى
وبـأُمٍّ رفـعَ اللهُ لهـا عَلماً مـا بين نِسْوَان الوَرَى
لو رسولُ الله يحيا بَعْدَهُ قعدَ اليـومَ عليـه لِلْعَـزا

ولا نشك فى أن هذه القصيدة كان ينوح بها الناحة لعصر الشريف الرضىّ فى مأتم الحسين ، وأن الناس كانوا يصيحون بأبياتها وينوحون بها معهم ، ودموعهم تسيل مدراراً وتتفجر أنهاراً . وديوان مهيار تلميذه ملىء بمثل هذا النواح الزاخر بالألم . ووراءهما جميعًا كثير من هذه المراثى السنوية الملتاعة على الحسين وآله ، مصورة انطباعات الحزن عليه ومداها فى نفوس الشيعة .

ومن الرثاء السياسى الدينى بالعراق وما وراءها من إيران رثاء مدن الشام منذ أواخر القرن الخامس الهجرى حين كانت تسقط فى أيدى حَمَلة الصليب المغيرين من الغرب ، وستأتى عما قليل معارك نور الدين وصلاح الدين وخلفائهما معهم ، حتى أجلوهم إلى البحر وما وراءه مدحورين . وحين سقطت فى أيديهم القدس

سنة ٤٨٨ بعد استبسال رائع لأهلها وبعد أن قتلوا فيهم مقتلة عظيمة رثاها كثير من الشعراء العراقيين والإيرانيين وغيرهم ، وهو فى حقيقته ليس رثاء بل هو استنفار للمسلمين كى يستردّوا ديارهم من الأعداء الآثمين ، ويردّوا إليهم كيدهم فى نحورهم ، من مثل قول أبى المظفر الأَبِيوَرْدِىّ من ميمية طارت فى الآفاق :

وكيف تنام العَيْنُ ملءَ جفونها ... على هَنَواتٍ أيقظتْ كلَّ نائمِ
وإخوانكم بالشام يُضْحِى مَقِيلُهمْ ... ظهورَ المَذاكى أَو بطونَ القَشاعمِ
وكاد لهنَّ المستجِنُّ بِطَيْبَـةٍ ... ينادى بأَعلى الصوتِ يا آل هاشمِ
أَرى أَمتى لا يُشْرعون إلى العِدَا ... رماحهمُ والدين واهى الدعائم
وليتهمُ إذ لم يذودوا حميَّةً ... عن الدينِ ضَنُّوا غَيْرةً بالمحارم
وإذ زهدوا فى الأَجر إذ حَمِىَ الوَغَى ... فهلا أَتوه رغبةً فى الغنائم

والمذاكى : الخيل القوية . والقشاعم : النسور المسنة . وطيبة : المدينة . والأبيوردى يستثير مَنْ حوله فى إيران والعراق ، فأهل الشام يستبسلون فى حرب حَملة الصليب وحدهم ، وهم بين فارس يدق صدورهم بسيفه وقتيل مضرج بالدماء تنوشه الطير ، وقد سُبيت النساء وانتُهكت حرمات الإسلام ، فياهول ما حلّ بديار المسلمين . وإن الرسول ليكاد يصرخ فى أمته : أجيبوا داعى الله ، وهبّوا هبة واحدة فى وجوه أعداء الدين الحنيف ، حمية للدين وغيرة على المحارم وطلبًا لما أعد الله للمجاهدين من ثواب الآخرة العظيم . ويكيل لهم — كما قلنا آنفًا — نور الدين وصلاح الدين ضربات مميتة ويسترد صلاح الدين بيت المقدس على نحو ما سنرى بعد قليل وينكل بهم تنكيلا شديداً . ويدور الزمن دورات ، وإذا التتار يأتون من أواسط آسيا بجحافلهم الجاهلة الوحشية فيكتسحون إيران ، ويغزون بغداد ويحرقونها ويحيلونها خرابًا يبابًا ، وبقى السيف يعمل فيها وفى أهلها أربعة وثلاثين يومًا ، ونظم الشعراء والعلماء قصائد كثيرة فى مراثيها ومراثى أهلها ، من ذلك قصيدة مشهورة للشيخ تقى الدين التنوخى ، يقول فى تضاعيفها :

يا زائرين إلى الزَّوْراء لا تفِدُوا ... فما بذاك الحِمَى والدارِ ديَّارُ

تاجُ الخلافةِ والرَّبْعُ الذى شرُفتْ به المعـالمُ قد عَفَّاه إقفارُ
إن القيامة فى بغدادَ قد وقعتْ وحدّها حين للإقبال إدبارُ
آلُ النبي وأهل العلم قد أسِرُوا فمن ترى بعدهم تحويه أمصارُ
لم يَبْقَ للدين والدنيا وقد ذهبوا سوقٌ لمجدٍ وقد بانوا وقد باروا

والزوراء: بغداد. وباروا: هلكوا. ويقول شمس الدين الكوفى من قصيدة طويلة:

أين الذين عهدتهم ولعزّهم ذُلاًّ تخِرُّ معـاقدُ التيجـانِ
ما زلتُ أبكيهم وألثم وحشـةً لجمـالهم متهدِّمَ الأركـانِ

فبغداد قد أحالها التتار قفراً خراباً، بل مقبرة لأهلها، بعد أن ظلت طويلا فردوساً تتعالى فيه أصوات الوعاظ والعلماء والشعراء، ويؤمّه الناس من كل فجٍّ عميق.

وطوال هذا العصر كان الغزل فى العراق على كل لسان، لأنه يحكى قصة الحب الإنسانى الذى تشترك فيه جميع الشعوب والأمم. وشاع فى بعض جوانبه المجون والغرائز النوعية، وخاصة عند الشاعرين البغداديين: ابن حجاج وابن سكرة، وكثير من غزلهما يؤذى الشعور السليم، غير أن الشعب كان يعدّ ذلك عندهما ضرباً من الهزل. ولم يكن هو الغزل الشائع وحده، فقد كان الغزل العفيف لا يقل عنه شيوعاً، لما يحمل من وجد حقيقى يملك على النفوس حسَّها وشعورها وعواطفها وأهواءها، وأيضًا لأنه هو الذى كان يتغنى فيه المغنون والمغنيات، فيُشعْنَه فى الألسنة، وقد ظل للغناء ازدهاره طويلا، ويصور لنا ذلك أبو حيان ببغداد فى القرن الرابع الهجرى. فيقول فى كتابه «الإمتاع والمؤانسة»: أحصينا، ونحن جماعة فى الكَرْخ (حَىّ اللهو والملاهى ببغداد) أربعمائة وستين من الجوارى المغنيات غير مائة وعشرين حُرَّة. هذا سوى مَنْ كنا لا نظفر به لحرسه ورقبائه. وكل هؤلاء كن يغنين ببغداد لعصره، وظل أمثالهن بعد عصره فى بغداد وغير بغداد يعملن على إشاعة أغانى الحب. غير من كان يشركهن فى الغناء من المغنين،

ولا بد أنهم كانوا يعدون فى بغداد لعصر أبى حيان بالمئات ، ومن طريف ما كان يدور بألسنة المغنين وترتفع به أصواتهم مما أنشده أبو حيان :

بالوَرْد فى وَجْنَتَيْكَ منْ لَطَمَكْ ... ومَنْ سقاك المُدامَ لِمْ ظلمَكْ
مُعَقْرِبَ الصُّدْغ ! قد ثَمِلْتَ فما ... يمنع من لَثْمِ عاشقِيك فمَكْ
بالله يا أُقْحُوانَ مَضْحَكِـهِ ... على قَضيبِ العقيقِ من نَظمك

والقطعة مليئة بالصور ، وباللفتات الذهنية التى تُحْدث مفاجأة لدى السامع ، فيعجب بالشعر وصاحبه . ويسوق لنا أبو حيان فصلا طويلا يحدثنا فيه عن طرب أهل بغداد بالغناء لعصره ، وأنه لم يكن بينهم شخص إلا ويطرب بالغناء طربًا شديداً حتى المتصوفة من مثل ابن فَهْم الصوفى الذى كان يطرب طربًا يفوق كل حدّ حين يسمع « نهاية » جارية ابن المغنى تندفع فى شَدْوها :

أستودعُ اللهَ فى بغداد لى قمَراً ... بالكرْخ من فلكِ الأزرارِ مَطْلعُهُ
ودَّعْتُه وبِـودِّى لو يودِّعنى ... صَفْوُ الحياةِ وأنى لا أودِّعُـه

ويذكر أبو حيان أنه كان من شدة طربه يضرب بنفسه الأرض ويتمرَّغ فى التراب ويهيج ويزبد ويعض بنانه ويخمش بظفره ويركل برجله ويخرِّق المرقَّعة (ثوبه المرقَّع) قطعة قطعة ، ويلطم وجهه ألف لطمة . ويصور لنا أبو حيان تصويراً نفسيًّا قاضى الكرخ ببغداد المسمى بالجراحى ، والناس من حوله فى مجلس الغناء ومدى تأثر كل منهم بما يسمع ، إذ يلتقى الغناء بأصداء نفسية تختلف باختلاف السامعين واختلاف أحاسيسهم ومشاعرهم وأحوالهم الوجدانية ، ويقول إنه كان مع وقاره وسمته وإطراقه الدائم لا يلبث فى مجلس الغناء حين يستمع إلى « شعلة » المغنية وهى تصدح :

لا بدَّ للمشتاقِ من ذكرِ الوطنْ ... واليـأْسِ والسَّلوةِ من بعد الحزَنْ

أن يغمز بالحاجب ، ويموج خفة وطربًا : ويقول أبو حيان : كانت قيامته تقوم إذا سمعها ترجِّع فى لحنها :

لو أن ما تَبْتليني الحادثاتُ بهِ يُلْقَى على الماءِ لم يُشْرَبْ من الكدَرِ

يقول أبو حيان ، فهناك ترى شيبة قد ابتلَّت بالدموع ، مع أسف قد أوهن الروح وقطَّع الصخر وأذاب الحديد ، وهناك ترى أحداق الحاضرين باهتة ، ودموعهم متحدرة ، وشهيقهم قد علا رحمة له . وهذه صورة — كما يقول — إذا استوت على أهل المجلس وجدتْ لها عدوى لا تُمْلَكُ ، وغايةً لا تُدْرَكُ ، لأنه قلما يخلو إنسان من صَبْوة ، أو صبابة ، أو حسرةٍ على فائت ، أو فكر فى متمنًّى ، أو خوفٍ من قَطيعة ، أو رجاء لمنتظر ، أو حزنٍ على حال . وهذه أحوال معروفة ، والناس منها على طريقة معهودة . وبلغ حينئذ من اتساع تأثر الناس بالغناء وطلبهم له أنهم لم يكونوا يختلفون إليه فى الحانات ودور اللهو فى الكَرْخ وغير الكرخ ، بل نقلوه أحيانًا إلى رِحاب المساجد ، إذ نرى أبا حيان ينوّه بطرب المعلم غلام الحُصْرِىّ شيخ الصوفية حين كان يستمع إلى ابن بهلول يغنى فى رَحْبة المسجد بعد صلاة الجمعة :

وقال لىَ العَذولُ : تسلَّ عنها فقلتُ له أتدرى ما تقولُ
هى النفسُ التى لا بُدَّ منها فكيف أزول عنها أو أحولُ

يقول أبو حيان : ولم يكن ابن سمعون أكبر وعاظ العصر ببغداد أقل طربًا من غلام الحُصْرِىّ حين يأخذ ابن بهلول القضيب ويوقِّع عليه ، ويزلزل الدنيا بصوته الناعم وغُنَّته الرخيمة .

وأكبر شعراء الغزل العفيف فى العصر ببغداد الشريف الرضى وتلميذه مهيار . وكان الصوفية يُشْغَفون بغزلهما شغفًا شديداً ، وبالمثل كان يشغف به كثير من الناس ، لما بثَّا فيه من وَجْد وحنين قوى . واشتهر الأستاذ وتلميذه بطائفة من الغزليات تسمى الحجازيات والنجديات ، لما أشاعا فيها من حنين ظامئ لأماكن حجازية ونجدية ، كانا يلتقيان فيها بمحبوباتهما ، وليست هناك محبوبات حقيقية ، إنما هى القدرة على تصوير دقائق الحنين ولوعاته من مثل قول الشريف الرضى :

خُذِى نَفَسِى ياريحُ من جانب الحِمَى ولاقِ به ليلاً نسيمَ رُبَى نَجْدِ
فإنَّ بذاك الجَوِّ حَبًّا عَهِدْتـــه وبالرغم منى أن يطولَ به عهدى
ولولا تداوى القلب من ألم الجَوَى بِذكرِ تلاقينا قضيتُ من الوَجْد
وما شربَ العُشَّـــاقُ إلا بقيَّتى ولا وردوا فى الحبِّ إلا على وِرْدِى

فهو يحنُّ إلى صاحبته كأقوى ما يكون الحنين بين المحبين ، ولا يزال يذكر لقاءها ، وكأنه بلسم يداوى جراحه . ويقول إنه يهيم بها هيامًا لم يعرفه عاشق من قبله ، فالعشاق جميعاً إنما يشربون بقية الكأس الذى شربه ، وما يردون فى الحب إلا على ورده وما فيه من رحيق مصفّى . أليس طبيعيًّا أن يغرم الصوفية بمثل هذا الغزل ويتناشدونه فى تضاعيف ذكرهم ووجدهم وصبابتهم بربهم ؟ وهذا ما حدث فعلا ، فقد كانوا ينشدون له هذه الأبيات وما يشاكلها من مثل قوله :

سَهْمٌ أصاب وراميه بِذى سَلَمٍ مَنْ بالعراق لقد أبعدتِ مرماكِ
يا ظبيةَ البان ترْعَى فى خَمائلهِ لِيَهْنِكِ اليوم أنَّ القلبَ مَرْعاكِ
المـــاءُ عندكِ مبذولٌ لشـــاربهِ وليس يُرْويك إلا مَدْمعى الباكى
أنت النعيمُ لقلبى والجحيمُ له فما أمرَّك فى قلبى وأحْـــلاكِ

إنها ظبية البان أو ظبية البيد ، تشعل قلبه حبًّا ولا ترقّ له ، وما أبعد الشقة ! أنْ يصيبه وهو بالعراق سهم حبها وهى بالحجاز فلا يستطيع عنها سلوًّا ولا منها خلاصًا ، بل يتعمق حبها قلبه . ومن عجب أنها تعطف على كل من حولها وترْوى ظمأهم ، أما هو فكأنما تطلب منه أن يرويها بدموعه الغزار . فما أبأسه ! إنه يجد فى حبها السعادة والشقاء ، ويتقلب بين النعيم والجحيم ، فتارة حلاوة صافية تذاق ، وتارة عذاب مرير لا يطاق . وكان مهيار يحاكيه فى هذا الغزل الحجازى وما يبث فيه من وجد ما بعده وجد ، ولذلك كثُر إنشاد الصوفية لغزلياته فى حلقات ذكرهم ، من مثل قوله :

مَنْ ناظِرٌ لى بين سَلْعٍ وقُبَا كيف أضاءَ البَرْقُ أم كيف خَبَا

بَرْقٌ له قد صـار قلبي خافقًا　　واستبردتْه أَضْلُعِي مُلْتهبا
سَلْ مَنْ يدلُّ الناشدين بالغَضَا　　على الطَّرِيدِ ويـردُّ السَّلَبا
أراجعٌ لى - والمُنى هَلْهَلَةٌ -　　فطـالعٌ نجْـمُ زمانٍ غرَبَا
وطَوْفةٌ بين القبـاب بِمنًى　　لا خائفا عَيْنًا ولا مُرْتقِبَا

والقطعة محمَّلة بحنين مؤثر إلى ديار المحبوبة فى المدينة المنورة عند جبل « سَلْع » و«قُباء» وفى نجد عند أشجار الغضا . ولا ينسى طوافه بقبابها بمكة فى منى ، وكأنها محبوبة قدسية ، وإن ذكراها لتهب عليه بنسيم عطر ، لم تستروح نفسه أزكى منه ولا أعبق . ويكثر مثل هذا الغزل المكتظ بالحنين عند مهيار وما يموج به من ذكريات ، ومن طريف ما دار له على الألسنة فى عصره و بعد عصره قوله :

اذكرونا ذِكْـرَنا عَهْـدَكمُ　　رُبَّ ذِكْرَى قرَّبَتْ مَنْ نَزحا
وارحموا صَبًّا إذا غنَّى بكم　　شربَ الدَّمْعَ وعاف القَدَحا
قد عرفتُ الهمَّ من بَعْدِكمُ　　فكأنى ما عـرفت الفرَحَا

وكلما تقدمنا فى العصر استقبلنا ما لا يحصى من مثل هذا الغزل العفيف الرائع الذى كان يتردد على الأفواه ، لما يترقرق فيه من حنين ظامئ أبداً . ومن أهم من اشتهروا به فى العراق الحاجرى والتَّلَعْفَرِى شاعرا الموصل فى القرن السابع الهجرى ، وهما يصوِّران استئثار الهوى بقلبيهما وعذابهما فيه ووَجْدهما وجداً لا يدانيه وجد ، وبذلك كان غزلهما قريبًا من كل نفس .

وكان من أقرب الشعر إلى أفئدة الناس شعر الزهد والتصوف لصلته بروح الإسلام ، فكان الشعراء يكثرون من الحديث إلى الشعب عن العمل الصالح والتقوى وعبادة الله والنسك والأمل فى جنته ونعيمه والخوف من ناره وجحيمه والقناعة ورفض متاع الحياة الزائل والاقتناع بالمعيشة المتقشفة . وكاد يكون فى كل مسجد واعظ ، إن لم يكن وعاظ يذكِّرون الناس بالموت وما بعد الموت من الحساب والثواب والعقاب . ومن كبار الزهاد الوعاظ فى العصر ابن الجوزى المتوفى فى أواخر القرن السادس الهجرى . وقد ظل يعظ الناس ببغداد أكثر من أربعين عامًا ، وكان

يحضر مجالس وعظه آلاف من الناس ، بينهم الأمراء والوزراء . وكان شديد التأثير فى سامعيه ، فسرعان ما ترسل وابلها العيون . وتبدى القلوب عن سر شوقها المكنون ، كما يقول ابن جبير الأندلسى فى رحلته المشهورة وقد شهد مجلس وعظه ، يقول : ويتطارح الناس عليه بذنوبهم معترفين ، وبالتوبة معلنين ، وكان ينشد فى أثناء مجلسه أشعاراً من النسيب ، مبرحة التشويق ، بعيدة الترقيق ، تشعل القلوب وجداً ، ويعود نسيبها زهداً ، من مثل :

أين فؤادى أذابه الوَجْــدُ وأين قلبي فما صَـحَا بَعْدُ
ياسعدُ زِدْنِى جَوًى بذكرهِمِ بالله قُلْ لى ـ فُديتَ ـ ياسَعْدُ

وكأنما كانت فى ابن الجوزى نزعة صوفية جعلته يستشهد فى مجالسه كثيراً بأشعار الوجد والغرام . ومن كبار الوعاظ فى العصر المرتضى الشَّهْرَزُورِىّ وكان أكثر تعمقاً فى التصرف من ابن الجوزى ، وكان مليح الوعظ مع الرشاقة ، وكان شاعراً مبدعاً ، وطبيعى أن يكون أكثر شعره فى التصوف والمحبة الإلهية ، وكثيراً ما كان ينشد منه فى مواعظه . وله قصيدة صوفية سارت بها الرُّكبان فى عصره وبعد عصره ، لما تذيع من مواجد الصوفية وحلاوتها الموسيقية ، وفيها يقول :

لمعتْ نارُهم وقد عَسْعَسَ اللَّيْـ لُ وملَّ الحادى وحـار الدليلُ
ثم قابلتُها وقلت لِصَــحْبى هذه النارُ نارُ لَيْــلَى فميلوا
وهْى تعلو ونحن نَدْنو إلى أنْ حجزتْ دونهــا طلولٌ مُحولُ
فدَنوْنا من الطُّلــول فحالتْ زفراتٌ من دونهــا وغَليــلُ
قلت : مَنْ بالديار ؟ قالوا جريحٌ وأســيرٌ مكبَّــلٌ وقتيــلُ
فحَطَطْنــا إلى منــازل قوْمٍ صَرَعَتْهم قبــل المذاق الشَّمُولُ

فهو ما زال يأخذ نفسه بِسُرًى طويل حتى ملّ الحادى ، لأن سُراه لا ينتهى ، وفجأة أحس كأنما لقى صاحبته ، فتلك نيران الحى واقدة ، ويحاول الوصول إليها ، فترتفع عنه ولا زالت ترتفع ، حتى حجبتها الطلول الماحلة . ويدنو من الطلول ، فيحس كأنما حجبته فى هذه المرة زفراته الحارة ودموعه المترقرقة فى عينيه . ويجد من

حوله كثيرين يريدون الوصول ، وهم بين جريح وأسير مقيد وقتيل ، وقد صرعتهم جميعاً خمر المحبة الإلهية قبل أن يذوقوها ، وينزل معهم وقد غمرت تلك المحبة قلبه وعقله . ويلقانا بعد الشهرزوري السُّهْرُوَرْدِيّ المقتول الذى أمر صلاح الدين بقتله ، لأنه غلا فى تصوفه ، وأفتى العلماء من رجال الدين بزندقته ، وكان قد كثر أتباعه ، فتفرقوا فى البلاد . وله قصيدة حائية سارت فى أوساط المتصوفة كل مسار ، وفيها يقول :

أبـــدًا تحنُّ إليـــكم الأرواحُ ... ووصـــالُكم رَيْحانُها والرَّاحُ
وقلوبُ أهل وداد كم تشـــتاقكم ... وإلى جَلال جمـــالكم ترتاحُ
وارحمـــةً للعاشقين تكلَّفوا ... سَـــتْرَ المحبَّة والهوى فضَّـــاحُ
يا صاحِ ليس على المحبِّ ملامةٌ ... إن لاح فى أفق الوصـــالِ صَباحُ
لا ذنبَ للعشاق إن غلَب الهوى ... كتمانَهُمْ فنمَا الغـــرامُ وباحوا
لا يَطْربون بغير ذكر حَبِيبهم ... أبـــدًا فكلُّ زمانهم أفـــراحُ
فتشبَّهوا إن لم تكونوا مثلَهم ... إن التشبُّه بـــالكرام فلاحُ

وهو يصور فى الأبيات عشق المتصوفة للذات الإلهية ومدى هيامهم ، فوصالها ريحانهم ، بل هو سكرهم وصحوهم ، بل إن صحوهم سكر خالص لما ينتشون به من محبة ربهم ، وإنهم ليحاولون أن يستروا حبهم ، ولكن الحب فضَّاح ينم عن صاحبه ، مهما ستره وأخفاه ، بما ينسكب من دموعه دائمًا على خدوده . وقد يظن الرائى أن الصوفية يبكون حزنًا ، وهم إنما يبكون فرحًا باللقاء والوصال ، فحياتهم أفراح . وفى القصيدة أبيات أخرى لم ننشدها تصوِّر غلوه فى تصوفه على نحو ما كان يغلو الحلاج إذ يؤمن بالفناء والاتحاد بالذات العلية . والقصيدة تذوب عذوبة ورشاقة ، وكان تلاميذه وأتباعه يحفظونها ، وينشدونها الناس . فتجرى بعض أبياتها على ألسنتهم . وشعر الصوفية من هذه الناحية كان قريبًا جدًّا من نفوس الشعب ، وخاصة حين كانوا يصوغونه هذه الصياغة السلسة السهلة . وكان قريباً من عصره سُهْرُوَرْدِيّ ثان هو شهاب الدين عمر بن محمد ، وكان شيخ الشيوخ ببغداد ، وعقد بها مجلس الوعظ سنين ، وكانت حلقته دائماً زاخرة بمئات

الأشخاص ، وكان يتخلّل وعظه بأشعار صوفية كثيرة ، تارة تخوض فى الحب الإلهى من مثل قوله :

إن تأملتكم فكلّى عيونٌ أو تذكرتكم فكلّى قلوبُ

وقوله :

تصرّمتْ وحشةُ الليالى وأقبلتْ دولةُ الوصالِ

وعلى طريقة الصوفية كان يرمز لنشوة الحب الإلهى أحيانًا بشرب الصَّهْباء وما تشيع فى النفوس من نشوة السكر ، ويُرْوَى أنه أنشد يومًا وهو يلقى وعظه على الكرسى فى المسجد الجامع ببغداد :

لا تسْقِنِى وَحْدِى فما عوّدْتَنِى أنى أَشِحُّ بها على جُلاَّسِى
أنت الكريمُ ولا يليقُ تكرُّمًا أن يَعْبُرَ الندماءَ دَوْرُ الكاسِ

فتواجد الناس لذلك — كما يقول ابن خلكان — وقُطِّعَتْ شعور كثيرة ، وتاب جمع كبير . وهذه كلها أمثلة من أشعار صوفية كانت تطبع فى لغتها بطوابع شعبية ، فهى قريبة جدًّا فى ألفاظها من لغة الشعب اليومية ، إذ كانت توجَّه إليه ، وكان يتعلّق بها ويرويها ، وسرعان ما كانت تنتشر فى آفاق العالم العربى جميعه . وكثير من هذه الأشعار الصوفية كان ينشده المتصوفة فى حلقات الذكر التى أخذت تعم فى بلدان العالم الإسلامى منذ أوائل هذا العصر . وكانت هذه الحلقات تنعقد حول صَفَّين من الذاكرين لله المسبِّحين يَمايلون وقوفًا يمينًا وشمالاً ، وسَمَّى معاصروهم ذلك رَقْصَ الصوفية . وكان يقوم بين الصفين منشد ، ينشد بعض الأشعار مما نظمه الصوفية ، ومما نظمه شعراء الوجد والهيام ، مما سموه بالحجازيات والنجديات ، على نحو ما أشرنا إلى ذلك فى حديثنا عن غزليات الشريف الرضى ومهيار . ويخيل إلى الإنسان كأنما نثْرَ الصوفية بين أيديهم كِنانة الغزل على مر العصور ، وخاصة ما انبثَّ فيه من الحنين بقوة إلى المواضع والأماكن الحجازية والنجدية ، وقد اختاروا أحدَّ ما قرءوه أو حفظوه سهامًا ، وأنفذه إلى القلوب والأفئدة ، فأنشدوه على الذكر وحلقاته . وتُرْوَى فى كتب الأدب والتاريخ أقاصيص كثيرة عن تواجد السامعين وشدة هيامهم حين كانوا يستمعون إلى هذه

الغزليات فى حفلاتهم الكبرى ، من ذلك ما يُرْوَى من أن مغنيًا تغنى فى الدعوة التى كان يقيمها الخليفة المستنجد سنويًا ببغداد :

يقول رجالُ الحىِّ تطمعُ أن ترى ... محاسنَ ليلى مُتْ بداءِ المطامعِ
وكيف ترى لَيْلى بعينٍ ترى بها ... سِواها وما طهَّرْتَهَا بالمدامعِ
وتلتذُّ منها بالحديث وقد جَرَى ... حديثُ سواها فى خُروق المسامعِ

وحضر مع الصوفية صوفى من أهل أصبهان فى إيران ، فوقف ، وظل قائماً قائلا للمغنى : « سيدى قل » أو كما يقول الناس الآن للمغنى : « أعِدْ » حين يعجبون بصوته، وما زال الصوفى يكرر ذلك ، والمغنى يعيد الأبيات ، حتى وقع الصوفى ميتاً، فانقلب ذلك الحفل مأتمًا ، وبكى الخليفة والصوفية ، وظلوا وظل الناس يتراقصون حول المغنى ، وهو يعيد الأبيات ، إلى الصباح ، وحملوا الصوفى إلى المقابر فدفنوه فى مشهد عظيم . وكان مثل هذا الحفل الصوفى يحدث كثيراً ، وكان الناس يتناقلون قصصه وما أُنشد فيها من غزل صوفى أو عُذْرِىّ عفيف . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن التصوف فى هذا العصر كان أداة قوية لنشر أشعار الحب ، سواء الصوفى منها المتصل مباشرة بالحب الإلهى ، وغير الصوفى المتصل بالحب الإنسانى ومعانيه الوجدانية التى يتسع فيها الخيال ويسبح الشعور فى طوفان من الحنين والحب المضنى الذى لا يدانيه حب .

وكانت طبقة العامة فى هذا العصر — كما فى العصرين السابقين — تعانى من الفقر والبؤس والجوع والعرى ، وكانت تكدح صباح مساء لتستمتع الطبقة الأرستقراطية بالحياة ، ولتنعم بكل ما يمكن من وسائل الترف وأدواته ، وكان ينشأ فى هذه الطبقة البائسة الفقيرة كثير من الشعراء أو قل جمهورهم ، وكان منهم من يرتفع عنها بما يصير إليه من مكافآت الطبقة الأرستقراطية تقديراً لفنه ، ولكن الكثرة ظلت تَرْسُف فى قيود البؤس والشقاء ، فكان طبيعيًا أن ينشأ فيها شعراء جَوّالون ، يرحلون فى البلدان العربية شرقًا وغرباً وشمالاً وجنوباً طلبًا لكسب ما يسدُّون به رمقهم ، بما يظهرون من براعات أدبية . وهم يشبهون — من بعض الوجوه — « جماعات الأدباتية » التى كانت تظهر عندنا بمصر إلى زمن قريب فى الموالد والأعياد أثناء الجيل الماضى والأجيال قبله ، وكأنما هى البقية الأخيرة لأولئك

الشعراء الجوالين القدماء الذين كانوا يُعْرفون باسم المُكْدين من الكُدْية ، وهى الشحاذة الأدبية . وعُرفوا باسم الساسانيين ، وكأنما كان لهم نسب فارسى عريق ، أو قل كأنما كان لهم عرق ومكان فى الحياة الفارسية الساسانية قبل الإسلام . ومن أكبرهم وأشهرهم فى أوائل هذا العصر الأحنف العُكْبَرِىّ ، وهو من « عُكْبَرَى » مدينة بالعراق ، وله يصور تعاسة أمثاله من المكدين الرحَّالين :

عشتُ فى ذِلَّةٍ وقِلَّـــة مالِ　　واغتراب فى معشـــرٍ أَنْذَالِ
بالأمـــانى أقول لا بالمعـــانى　　فغِـــذائى حـــلاوةُ الآمـــالِ

فهو راحل دائمًا ومغترب دائمًا ، يطوف البلدان من الهند إلى ديار الزنج باحثًا عن بعض الدراهم ، ولا دراهم ولا مال ، فهو يعيش بالأمانى الحلوة وحدها ، وليس فى يده منها شىء سوى البؤس والضنك والضيق والمسغبة ، حتّى البيت لا يملكه ، بل حتّى الوطن لا يملكه ، يقول :

العنكبوتُ بَنتْ بَيْتًــا على وَهَنٍ　　تــأوى إليـــه ومالى مِثْـــلهُ وطَنُ
والخنفساءُ لها من جِنْسها سَكن　　وليس لى مثلهـــا إلفٌ ولا سكَنُ

فلا دار له ولا مأوى ، ولا وطن ولا سكن ، ولا بيت حقير قذر كبيت الخنفساء ، ولا بيت واه متداع كبيت العنكبوت ، ولا إلف يألفه ولا صديق يركن إليه . إنه غريب ، غربة لا ضفاف لها ، ولا مَنْ يرحمه ، ولا من يفتح له بابه ، ولا من يفتح له كيسه ، فالدنيا مغلقة أمامه ، ولا مغيث ولا معين . وكان لا يقل عنه كُدْيَة وشحاذة أدبية واغترابًا فى الآفاق أبو دُلَف الخزرجى ، وكان بديع الزمان الهمذانى يعجب بأدبه الشعبى الذى يتسوَّل به وبجماعته من الساسانيين المكدين ، فسمَّى مقامة من مقاماته باسم المقامة الساسانية ، وأودع فى المقامة الأولى من مقاماته قول أبى دلف على لسان أبى الفتح بطل مقاماته مصورًا شحاذته الأدبية واحتياله على الناس فى البلدان العربية المختلفة :

وَيْحك هذا الزمانُ زورُ　　فلا يَغُـــرَّنَّك الغَـــرُورُ
زوِّقْ ومَخْرِقْ وكُلْ وأَطْبِقْ　　واســرق وطَلْبِـــقْ لمن يزورُ

لا تلتــزم حالةً ولكنْ دُرْ بالليــالى كمــا تدورُ

فالزمان كله زور وخداع واحتيال على الرزق ، ولا بأس أن يكون هذا الاحتيال بالمخرقة والسرقة وبكل صورة من صور الخداع والمكر والدهاء. ولأبى دلف قصيدة تبلغ نحو مائة وخمسين بيتًا ذكر فيها أصناف المكْدين وأفعالهم وحيلهم وتجوالهم فى البلدان . وهو يستهلها بغزل فكه يخرج منه إلى الفخر بأنه من الساسانيين البائسين الذين يمعنون فى الترحال وراء الدرهم والدينار ، برًّا وبحراً وشرقاً إلى الصين وغرباً إلى طنجة ، وشمالا إلى بلاد الكفر فى أوربا وجنوباً إلى بلاد النخيل والتمر فى الجزيرة العربية . فدائماً تطواف ، ودائماً ترحال من قطر إلى قطر ، ومن بلد إلى بلد بحثاً عن لقمة العيش التى تتقطّع لها قلوبهم حسرات ، يقول :

ألا إنى من القوم ال بها ليــل بنى الغُــرِّ
بنى ساسانَ والحامى ال حِمَى فى سالف العَصْرِ
فطِبْنا نـأُخــذ الأوقا ت فى العُسْرِ وفى اليُسْرِ
وظــلَّ البَيْنُ يرمينا نَوًى بَطْنًــا إلى ظَهْرِ
فنحن الناسُ كلُّ النَّا س فى البَرِّ وفى البَحْرِ
أخذنا جِزْيَةَ الخَلْقِ من الصِّين إلى مصــرِ
إلى طنْجَة بلْ فى كـ لِّ أرضٍ خَيْلُنا تسْرِى
لنا الدُّنْيَا بما فيها من الإسلام والكُفْرِ
فنَصْطافُ على الثَّلْجِ ونَشْــتو بلدَ التَّمْــرِ

ويمضى أبو دلف فى قصيدته مصوراً حيل الساسانيين ، فهم يكتبون للنساء والرجال التعاويذ والأحراز ، وهم يقيمون منهم قاصًّا يقص على الناس ، ويأمر أحد رفاقه بإعطائه بعض الدراهم ، حتى إذا انتهى المجلس تقاسم معه ما جمعه . وهم يشدون العصابات على جباههم يوهمون الناس أنهم مرضى ، كى يحسنوا إليهم . ومنهم من يدهن جسمه بالزيت حتى يسودّ جلده ويوهم الناس أن الجن لطمته أو جلدته . وتتعدّد صور استدرارهم لعطف الناس حتى يرموا إليهم بالدراهم ، من

ذلك أن منهم من يزعم الخَرَس وأن الروم قطعت لسانه فى الحرب . ومنهم من يزعم أنه فى حاجة إلى الدروع والسلاح للغزو . ومنهم من يتزيّى بزى النسّاك للسؤال بنسكه . ومنهم من يُرِى الناس كأن يده مقطوعة . ومنهم من يزعم أنه كان من أهل الكتاب وأسلم . ومنهم من يدور بين المغرب والعشاء فى الطرقات قائلا : رحم الله من عشّى الغريب الجائع ، آخذا من كل دار كسرة خبز . ومنهم من يوهم الناس أنه يعرف فى النجوم أو ما يسمى بالطالع . ومنهم من معه قطنة مغموسه فى الزيت ، يمرّها على عينيه لتدمع ويشكو حاله . ومنهم من يعبّرون الرُّؤَى والأحلام ، ومنهم من يتعامى ويؤجر طفلا ليأخذ بيده . ومنهم الحُواة . ومنهم من يشحذون على القردة . ومنهم من يرتعدون رعدة شديدة تهتز لها مفاصلهم وتصطك أسنانهم . ومنهم من يشدّ لامرأة يدها أو عينيها ويشحذ عليها . ومنهم من يلبسون المرقّعات يوهمون أنهم من الصوفية . وعلى هذا النمط يعطينا أبو دلف صورة دقيقة لحياة أصحاب التسول والشحاذة لعصره ، ويختم قصيدته بقوله :

ألا إنى حَلَبْتُ الدَّهـ ر من شطرٍ إلى شَطْرِ
فإن أظفــرْ بآمالى شفينَا غُلَّة الصَّــدْرِ
وألممتُ بأوطــانى قوىَّ النَّهْى والأمرِ
وإما تكن الأخرى فلا أُبْتُ مع السَّفْرِ
ولا عُدْتُ متى عُدْت بلا عِــزٍّ ولا وَفْرِ

وواضح أن هذه الطائفة من الشعراء كانت طائفة شعبية خالصة ، شعبية فى حياتها المتواضعة ، وشعبية فى لغة أشعارها ، فهى أشبه بلغة الحياة اليومية . وقد أكثروا فى أشعارهم من ألفاظ العامة والطبقات الدنيا . ومما يؤكد هذا الجانب من الصلة الوثيقة بين الشعر والشعب أننا نجد من بين شعرائه طائفة من الأميين ، مثل الخبّاز البلدى الموصلى إذ كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب ولا تخلو مقطوعة له — كما يقول صاحب اليتيمة — من معنى حسن أو مثل سائر ، ونراه يقول لبعض من تعرضوا له بالهجاء :

بالغتَ فى شَــتْمى وفى ذَمِّى وما خشيتَ الشــاعرَ الأمِّى
جَرَّبْتَ فى نفسك سَمًّا فما أحمدت تَجْريبَك للسَّــمِّ

ويدل على تغلغل الشعر حينئذ فى جميع الطبقات أننا نجد كثيرين من أصحاب الحرف فى الشعب يسهمون فيه مثل الزاهى من شعراء القرن الرابع الهجرى ، وكان قطّاناً وكانت دكانه بالكَرْخ ، وكان وصّافا محسنا كثير الملح حسن الشعر . ومثله معاصره السَّرِىّ الرَّفّاء ، وكان يَرْفو الثياب ويطرّز عليها فى دُكان له بالموصل ، وكان شاعراً مطبوعًا عذب الألفاظ كثير الافتنان ومن طرائف شعره فى الغزل قوله :

بنفسى مَنْ أجودُ له بنفسى ويَبْخل بالتحيَّة والسَّلامِ
وحَتْفِى كامنٌ فى مُقْلتَيْهِ كمونَ الموت فى حَدِّ الحُسامِ

وعلى هذا النحو لم يكن الشعر بالعراق فى هذا العصر خاصًّا بطبقة معينة من الطبقات ، بل كان عامًّا للشعب بجميع أفراده من أصحاب حرف وغير أصحاب حرف ، ومن أميين وغير أميين ، لسبب مهم أكثرنا من الإشارة إليه ، وهو أن الثقافة بالشعر لم يكن دونها أسوار تحول بين أى فرد من أفراد الشعب وبين إحسانه للشعر ، حتى لو كان أميًّا لا يعرف القراءة والكتابة .

وأخذ الشعر فى مصر لهذا العصر ينهض نهضة قوية ، إذ أصبحت لها زعامة البلاد العربية منذ أقام الفاطميون فيها دولتهم ، وتبعهم الأيوبيون والمماليك ، وكان لواؤها حينئذ يُظِلّ الشام أختها ، وكان شعراء البلدتين يتبادلان الإقامة فيهما . وقد يقيم الشاعر من إحدى البلدتين فى البلدة الثانية شطراً كبيراً من حياته ، إذ كانتا بلدة واحدة يتحد الحكم فيها . ونستثنى من هذه الوحدة السياسية فترة إمارة الحمدانيين وبطلهم سيف الدولة بحلب لأوائل هذا العصر ، ومنها أدار هجومه الباسل على الروم البيزنطيين ، على نحو ما مرَّ بنا آنفا ، وقد رأينا كيف تغنَّى المتنبى ببسالته وخلَّدها على الزمن وقد تغنَّاها معه شعراء الشام والعراق وابن عم سيف الدولة أبو فراس الحمدانى ، وكان فارساً مقداماً ، وطالما حطّم الروم حطمًا . وحدث أن التقى بهم فجأة ذات مرة ، فنازلهم نزال الأبطال ، حتى أثخنوه بالجراح ، وأسروه ، وأرسلوا به إلى بيزنطة ، وظل فى أسرهم أربع سنوات طوالا ، إلى أن افتداه سيف الدولة مع طائفة من أسرى المسلمين . وله فى أسره قصائد كثيرة سماها معاصروه بالروميّات ، لأنه نظمها فى بلاد الروم ، وهى تمتلئ حماسة وفتوة وقوة ، من مثل قوله :

وإنى لجـــرَّارٌ لكلِّ كتيبَـــةٍ معوَّدَةٍ أن لا يُخِلَّ بها النَّصْـــرُ
أُسِرْتُ وما صَحْبِى بِعُزْلٍ لدى الوَغَى ولا فَرَسى مُهْـــرٌ ولا رَبُّهُ غَمْرُ
ولكن إذا حُمَّ القضاءُ على امرئٍ فليس له بَرٌّ يَقيه ولا بَحْرُ
يمنُّون أن خَلَّوْا ثيـــابى وإنما علَّى ثيـــابٌ من دمائهم حُمْرُ
وقائمُ سيفى فيهمُ اندقَّ نَصْلُهُ وأعقابُ رُمْحِى فيهمُ حُطِّمَ الصَّدْرُ
سيذكرنى قومى إذا جَـــدَّ جِدُّهم وفى الليلةِ الظَّلْماءِ يُفْتَقَدُ البَدْرُ
ونحن أُناسٌ لا توسُّطَ بيننا لنا الصَّدْرُ دون العالمين أو القبْرُ
تهونُ علينا فى المعالى نفوسُـــنا ومن يَخْطب الحسناءَ لم يُغْلِها المَهْرُ

فهو بطل الحروب يقود جحافلها المظفرة ، أما أسره فإنه قدر مقدور نزل به ولا عاصم منه ، وقد أحْنَى له الروم حين أسروه رءوسهم إجلالا لفروسيته وما يعلمون من بأسه ؛ فتركوا له ملابسه الحربية يرتديها ، وهى ملابس ملطخة ، بل مضمخة ، بدمائهم ، فطالما اندقت سيوفه فى أجسادهم وصدورهم ورءوسهم . ويذكر قومه وبسالتهم ، ويقول إنهم لن ينسوا صولاته وجولاته فى ميادين حرب الروم ، وسيشعرون فى عمق بافتقاده — فى منازلتهم — كما يشعر الناس بافتقاد البدر فى الليالى المدلهمة . ويفخر بشجاعته وشجاعة قومه ومطامحهم الضخمة ، حتى كأنما تعاهدوا أن يكون لهم الصدر دون الناس جميعا ، وإلا فالقبر والموت الكريم ، وما أعظم تضحياتهم فى سبل المعالى والأمجاد الحربية ! إنهم يضحون بمهجهم وأرواحهم ، وكأنها صداقها النفيس . واشتهرت هذه القصائد الرومية منذ عصر أبى فراس ، ودارت على كل لسان لا فى حلب وحدها ، بل فى كل البلاد العربية ، لما تخفق به وتنبض من هذه الفتوة النفسية ، وكأن أبا فراس يعبِّر عن روح كل عربى إزاء أعدائه وأعداء أمته ، حتى فى الأسر ، والأغلالُ والقيود تأخذ بيديه وساقيه ، فإنه لا يذل ولا يهون ولا تنكسر نفسه ، بل تظل لها صلابتها الصلدة العاتية . وتلك هى روح العرب الخالدة على الزمن ، التى أجبرت أعداءهم فى كل عصر على احترامهم على نحو ما احترم الروم أبا فراس ، حتى بعد أسره ، فتركوا له زيَّه الحربى ، يتزيَّى به .

ويدور الزمن دورات حتى أواخر القرن الخامس الهجرى كما مرَّ بنا وإذا

البابا إربان الثانى يصيح فى الغرب لاستخلاص الأراضى المقدسة فى فلسطين من أيدى المسلمين ، ويمنح صكوك الغفران لكل من يحمل الصليب لهذه الغاية الآثمة ، ويلبيه مائة ألف من أرجاء أوربا ، يتقدمهم بعض الأمراء الألمان والفرنسيين والإيطاليين . وكانت ديار الشام حينئذ موزعة بين السلاجقه والفاطميين ، وكانوا قد بلغوا من الضعف مبلغاً شديداً ، فلم يستطيعوا الصمود أمام هذا الجيش الضخم من حَملة الصليب ، وسرعان ما استولى على أنطاكية ، والرُّها على الفرات ، وطرابلس ، والقدس ، مكوناً بكل منها إمارة مستقلة على أشلاء من قاوموه مقاومة عنيفة من أبناء الشعب . وعم الناس فى المنطقة حينئذ يأس ممضٌّ ، إلى أن ظهر ثلاثة من أبناء الشعب وقواده العظام ، هم عماد الدين زنكى وابنه نور الدين وصلاح الدين الأيوبى ، الذين أخذوا يدقون أعناق الصليبيين دقًّا ويسحقونهم سحقاً . وقد رأى عماد الدين أنه لابد أولا من توحيد الديار التى نزلوا بها : ديار الموصل والشام ، فجمعها تحت لوائه ، ثم مالبث أن أخذ يغزو حَملة الصليب ويستولى على حصونهم ، حتى إذا كانت سنة ٥٣٩ للهجرة استولى على مدينة الرُّها ، فكان ذلك أولى البشائر بالنصر المبين على الصليبيين ، وغمر الفرح قلوب الشعب ، وتغنى الشعراء طويلا بانطباعاته فى نفوسه ، من مثل قول شاعره ابن القَيْسَرانى :

هو السيفُ لا يُغْنيك إلا جِلادُهُ ... وهل طوَّق الأَمْلاكَ إلا نِجادُهُ

سَمَتْ قِبْلَةُ الإسلام فخراً بِبَأْسهِ ... ولم يك يسمو الدينُ لولا عِمادُهُ

فياظفرا عَمَّ البلادَ رَشَادُهُ ... بمن كان قد عَمَّ البلادَ فَسادُهُ

فلا مُطْلَقٌ إلا وشُدَّ وَثاقُهُ ... ولا مُوثَقٌ إلا وحُلَّ صِفادُهُ

ولا مِنْبَرٌ إلا ترنَّح عُودُهُ ... ولا مصحفٌ إلا أنارَ امتداده

فقُلْ للملوك الكُفرِ تُسْلِمُ بعدها ... ممالكَها إن البلادَ بلادُه

وابن القيسرانى ينوه بالسيف ، فهو رمز القوة فى الأمة ، وهو الذى يسندها ويحميها ، ويرد كيد أعدائها فى نحورهم . وها هو بيد عماد الدين وجنوده البواسل وقد جعل الدين الحنيف وقبلته يشعران بالزهو ، لما حقق من نصر مجيد على حَملة الصليب ، فإذا دماؤهم تسيل أنهارا وإذا أشلاؤهم تملأ كل طريق وإذا أسراهم

يعدون بالآلاف ، فلم يكد ينجو منهم أحد ، إذ هم بين قتيل وأسير فى السلاسل والأغلال . وقد رُدَّت إلى كل من ألقوا به من المسلمين فى السجون حريته وحُطِّمت عنه الأغلال والقيود . وعادت الرها إلى ديار الإسلام ، وعاد الخطباء إلى منابرها يوم الجُمَع ، وعاد القرآن يُتْلَى فى مساجدها . فما أعظم فرحة الشعب ، وما أعظم فرحة شاعره ، وإنه ليهدد حَملة الصليب فى ديار الشام ، بأنه ينتظرهم نفس المصير ، وخيرلهم أن يستسلموا عن يدٍ صاغرين خانعين . ولا يلبث عماد الدين أن يلبى نداء ربه بعد سنتين من نصره العظيم ، وقد حَمَّل الأمانة لابنه نور الدين أمير حلب ، ويحمل أعباءها مجاهداً فى سبيل الله بكل ما يستطيع هو وجنده من عُدَّة وقوة ، ويُنْزل بحملة الصليب ضربات قاصمة ، ويستولى على كثير من حصونهم ويمعن فيهم قتلا وأسراً لصناديدهم . وتسوِّل لصاحب إنطاكية نفسه أن يزحف لحربه بجيش كثيف فيفتك بجيشه فتكًا ذريعًا ، ويخرُّ فى الميدان صريعاً متخبِّطاً فى دمائه ، وتغمر نشوة الظفر الشعب كله ، ويصدر عنها ابن القيسرانى فى قصيدة بائية له يقول فى تضاعيفها :

هَـذِى العزائمُ لا ما تدَّعى القُضُبُ ... وذى المـكارمُ لا ما قالتِ الكتبُ

أغرتْ سيوفَك بالإفرنج راجفـةٌ ... فؤادُ روميَّـةَ الكبرى لها يَجِبُ

غضبتَ للدين حتى لم يفتْك رِضاً ... وكان دينُ الهدى مَرْضاتُه الغضبُ

فانهضْ إلى المسجد الأقصى بذى لَجَبٍ ... يُوليك أقصى المنى فالقدسُ مُرْتقبُ

وائْذَنْ لموجك فى تطهيرِ ساحلهِ ... فإنما أنت بَحْـرٌ لُجُّه لَجِبُ

وهو يشيد بعزيمة نور الدين ومَضائه فى حرب حَملة الصليب الذى فاق كل مضاء تحدثت عنه المعارك وكتب التاريخ ، مضاء مزَّق جيوشهم تمزيقاً ، وإن صواعقه التى يُنْزلها على رءوسهم ليخفق لها قلب رومِيَّة وقلوب بابواتها الذين دفعوا الصليبيين إلى هذه الحرب المهلكة التى يصلون نارها الحامية . ويقول لنور الدين إنك غضبت للدين الحنيف غضبة مضرية ، لم تُبْقِ من هذا الجيش باقية ، وحرى بك أن تندفع بجنودك طاوياً الأرض إلى القدس وإلى المسجد الأقصى ، فتمحق الصليبيين الباغين هناك محقًا ، وهاهو القدس يناديك ويدعوك ، لتنزل عليه بأمواج جندك ، فتطهره

من رجس حَملة الصليب ، وتطهر الساحل الشامى كله .

وكان نور الدين ما يزال ينازل الصليبيين ، وكأنما وهب حياته كلها لحربهم ، وتتوالى انتصاراته وتتوالى هزائمهم ، ويفتح قلاعهم وحصونهم فى شمالى ديار الشام. ومع كل فتح يتغنى الشعراء بمدائح تصور نضاله الحربى الرائع . واقرأ فى كتاب « الروضتين فى أخبار الدولتين » : دولته ودولة صلاح الدين الأيوبى فستجد مؤلفه أبا شامة المقدسى يسرد كل فتح له سرداً تاريخيًّا ، يتلوه بأشعار المدح التى تعكس ابتهاج الشعب بفتوحه المتوالية . وكان نور الدين نافذ البصيرة ، فرأى من الحتم أن تتوحد مصر والشام تحت لواء واحد حتى تضرب جنودهما الصليبيين الضربة القاضية ، وكان قد شغله أمر مصر لما حملته الأنباء له من نوايا حَملة الصليب لغزوها ، وحدث أن تحارب وزيراها : شاور وضرغام ، واستعان شاور به ، فوجدها فرصة سانحة ، وأرسل إليه بنجدة يقودها أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وتطورت الحوادث سريعا ، فقُتل شاور ، وتولى الوزارة أسد الدين ، ولم يلبث أن توفى ، فوليها بعده صلاح الدين ، وسرعان ما توفى الخليفة الفاطمى العاضد ، فأعلن صلاح الدين انتهاء حكم الفاطميين ، وردّ الخلافة إلى العباسيين . ولم يقف تعاقب الحوادث السريع عند ذلك ، فقد توفى أيضًا البطل نور الدين . وسرعان ما أعاد صلاح الدين لديار مصر والشام وحدتهما السياسية ، وكأن ذلك كان إيذاناً حقًّا بأن يقضى على الصليبيين المغيرين القضاء المبرم ، فإذا هو ، بقيادته الرشيدة ، يُعدُّ جيشاً ضخماً مصريًّا شاميًّا ، ويتسامع به حَملة الصليب ، فيتجمعون من كل حصن قريب وبعيد ، ويُعِدُّون جيشًا كثيفًا ، ويلتحم الجيشان لسنة ٥٨٣ فى معركة حِطّين الفاصلة المشهورة ، وفيها كان أفراد الجيش العربى يصيحون صيحة رجل واحد : الله أكبر . وسرعان ما أنزل الله عليهم النصر المبين ، فاستولوا منهم راغمين على صليب الصلبوت ، ومزقوهم شر ممزق ، وأسروا منهم مَنْ لا يُحْصىَ عدده ، وعلى رأسهم صاحب بيت المقدس : جاى لوزيجنان ، وصاحب حصنى الكَرك والشوبك بالأردن : ريجنالد ، وقد قتله صلاح الدين بسيفه جزاءً وفاقًا لنقضه صلحًا معه وغَدْره بجماعة من المصريين مرّوا بحصنه : الكرك وسفكه لدمائهم ، وكان قد بنى أسطولا فى العقبة لغزو مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحطّمه الأسطول

المصرى فى البحر الأحمر تحطيماً . ومضى صلاح الدين بجيشه الباسل يستولى على كثير من مدن فلسطين ولبنان مثل بيت جبريل (بئر سبع) ونابلس وقَيْسَارية وحيفا وصيدا وبيروت ، وزحف على بيت المقدس وضيّق عليها الخناق . حتى فتح له الصليبيون أبوابها وطهرها من رجسهم الأثيم . وكان لهذه الفتوح العظيمة رنّات فرح وابتهاج تجاوبت بها قلوب الأمة العربية وأفئدتها فى ديار العروبة والإسلام جميعها . ومضى الشعراء يتغنون بها فى الشام ومصر وفى كل مكان ، مادحين ومهنئين قائدها المظفّر صلاح الدين الذى ردّ إلى الأمة قُواها كاملة ، وأجبر حَمَلة الصليب الغاشمين على الركوع تحت أقدامها خانعين مستذلّين . واقرأ فى كتاب « الروضتين فى أخبار الدولتين » فستجد فتوح صلاح الدين موصوفة وصفاً تاريخياً ، ومع كل فتح بعض المدائح التى نُظمت فيه والتى تعكس الغبطة فى نفوس الأمة وأبنائها . ونكتفى من هذا الشعر الكثير أو قُلْ هذا الديوان الضخم ببعض الأمثلة ، فمن ذلك قصيدة طنانة للعماد الأصبهانى مدح بها صلاح الدين عقب انتصاره فى معركة حِطّين بمثل قوله :

حططتَ على حِطّينَ قَدْرَ ملوكهم ... ولم تُبْقِ من أجناس كفرهمُ جِنْسا

بطونُ ذئابِ الأرض صارتْ قبورَهم ... ولم تَرْضَ أرْضٌ أن تكون لهم رَمْسا

سَبَايا ، بلادُ الله مملوءةٌ بها ... وقد شُرِيَتْ بَخْسًا وقد عُرِضتْ نَخْسَا

يُطاف بها الأسواقُ لا راغبٌ لها ... لكثْرتها كم كثرةٍ توجب الوَكْسَا

والعماد يصف سحق صلاح الدين لجموع الصليبيين وملوكهم سحقاً لم يبق منهم ولم يذر . وكيف تحولوا مأدبة كبرى للذئاب ، وكأنما أبت الأرض أن يكون لهم فيها قبور خشية أن يدنّسوها بأجسادهم ، ويا وَيْحَ الأسرى منهم ، إنهم . يملئون البلاد وينادَى عليهم فى الأسواق ، ولا من مشترٍ يشتريهم ، لكثرتهم كثرة مفرطة ، حتى قيل إن من كان يشاهد قتلاهم كان يظن كأن الصليبيين جميعا قُتلوا ولم يُبْقِ القتل للأسر أحداً منهم ، ومن كان يشاهد الأسرى كان يظن — لكثرتهم — أن جميع الصليبيين أُسروا . وبلغ من كثرتهم أن الأسير منهم كان يباع بثلاثة دنانير ، ولا يجد من يرضاه لنفسه عبداً مملوكاً . ويصف ابن سناء الملك

فتوح صلاح الدين المتعاقبة مهنئا له بفتحه الكبير للقُدْس ، منشداً :

قد ملكتَ الجِنانَ قصْرًا فقَصْرًا ... إذ فتحتَ الشآم حِصْنًا فحصْنا
لك مَدْحٌ فوقَ السموات يُنْشَا ... ومحلٌّ فوق الأَسِنَّةِ يُبْنَى
قصدتْ نحوك الأعادى فردَّ اللـ ... ـهُ ما أَمَّلوه عنك وعَنَّا
لم تُلاق الجيوش منهم ولكنَّـ ... ـك لاقَيْتهم بلادًا ومُدْنا

ومضى ابن سناء الملك فى القصيدة يشير إلى أخذ صلاح الدين لصليب الصلبوت فى معركة حطين وفتحه لبيت المقدس وطبريّة ونابلس وحصون عَسْقلان والنَّطرون وتَبْنين وبيت جبريل . وعدَّد فى القصيدة أسماء ملوك الصليبيين وصناديدهم الذين جمعتهم سلاسله وأغلاله . وهذه المعارك والفتوح التى تآزر فيها الجنود المصريون والشاميون والأكراد قوم صلاح الدين أو كما كانوا يسمونهم الترك هيأت للإحساس العميق بفكرة الوحدة العربية ، حتى لينشد ابن سناء الملك فى إحدى تهنئاته لصلاح الدين بانتصاراته المجيدة :

بدولة التُّرْكِ عَزَّتْ مِلَّةُ العَرَبِ ... وبابن أَيُّوبَ ذلَّتْ شِيعةُ الصُّلُبِ
وفى زمان ابن أيوبَ غدتْ حَلَبٌ ... من أرض مصرٍ وعادتْ مصرُ من حَلَبِ

وكأن معركة الصليبيين قديمًا نفثت فى روع الأسلاف فكرة الوحدة العربية على نحو ما نفثتها حديثًا معركة إسرائيل ، فأصبح جميع العرب من الخليج إلى المحيط يؤمنون بها فى قوة . وبجانب ما سكبت البطولات فى الحروب الصليبية من تلك الفكرة سكبت مشاعر كثيرة بالفخر وبالعزة وبالإرادة الباطشة الجبارة ، مما جعل الأفراد ، وفى مقدمتهم الشعراء ، يشعرون بشخصياتهم أقوى شعور ، وهو شعور كان يملؤهم استعلاء وإيمانا بأن شيئا لا يستطيع أن يعترض مطامحهم ، وأنه إن وقف فى طريقها أى عائق دمّروه تدميراً ، ومن خير ما يصور هذا الشعور قول ابن سناء الملك مفاخراً فى حماسة ملتهبة :

سواىَ يخاف الدَّهْرَ أو يرهب الرَّدَى ... وغيرىَ يَهْوَى أن يكون مخلَّدا
ولكننى لا أرهبُ الدهرَ إن سَطا ... ولا أحذر الموت الزُّؤَامَ إذا عَدا

وإنك عبـــدى يازمانُ وإنـــنى على الكُرْهِ منى أن أرَى لك سيِّدا
ولو علمتْ زُهْرُ النـــجوم مكانتى لخرَّتْ جميعًا نحو وجهى سُـــجَّدَا

والقصيدة كلها فخرعات كأنه حُمَمٌ بركانية ، يقذفها بركان مشتعل ، بركان قوة لا حدود لها ، قوة أنشأتها فى نفس ابن سناء الملك ومعاصريه انتصارات صلاح الدين على الصليبيين ، انتصارات خارقة ، وكأنما هى إحدى المعجزات . فلا عجب أن لا يرهب ابن سناء الملك وغيره من المصريين الموت لأنهم عرفوا من الملاحم الصليبية أن جنود مصر هم الذين يتحكمون فى الموت بسَوْقه إلى الصليبيين وما يذيقونهم من كئوسه . ولاعجب أيضاً أن لا يرهب الدهر وسطواته ، هو وأمثاله من المصريين ، لأنه أصبح من خدمهم وعبيدهم يصرِّفونه كيف يشاءون ، وكأنما دانت لهم الأرض ودانت أيضاً السماء .

ويتوفَّى صلاح الدين ويافا وعكا لا تزالان فى أيدى الصليبيين ، وتمر سنوات ويربّع على عرش مصر السلطان الكامل ويضع صاحب عكا يده فى يد الصليبيين ، ويعدون أسطولا ضخمًا لغزو دمياط ، وينزلونها ، وما يلبث السلطان الكامل أن يلقاهم ويسحقهم سحقًا ويدمر أسطولهم ويفرُّوا إلى البحر المتوسط وما وراءه مدحورين . وأقيمت مواكب النصر فى كل الديار المصرية وتسامع العرب به فى كل مكان ، وكأنما عمَّت الفرحة كل بلد بل كل دار ، وفى ذلك يقول البهاء زهير من قصيدة مدح بها السلطان الكامل :

بك اهتزَّ عِطْفُ الدين فى حُلَلِ النَّصْرِ ورُدَّتْ على أعقابها مِلَّـــةُ الكُفْرِ
وما فرحتْ مصـــرٌ بذلك وحدها لقد فرحتْ بغدادُ أكثرَ من مِصْرِ
فمن مبلغٌ هـــذا الهناءَ بمكَّةٍ ويَثْرِبَ ، يُنْهيه إلى صاحب القبرِ

والأبيات قوية الدلالة على ما ذكرناه من الشعور بالوحدة العربية ، فهذا الانتصار العظيم بدمياط على الصليبيين لم تفرح به مصر وحدها ، بل فرحت معها بغداد وغير بغداد من بلدان الشام وغير الشام . والبهاء زهير يهنئ به مكة والمدينة والرسول عليه السلام ، إنه عيد من أعياد العروبة والإسلام . وتمضى إلى سنة ٦٤٧

وتعاود الصليبيين فكرة غزو دمياط والديار المصرية ، ويقودهم لويس التاسع ملك فرنسا ، ويتقدم على حافة فرع دمياط متجهاً إلى المنصورة ويلتقي به الجيش المصري ، ويمزق جيشه شر ممزَّق ، ويؤسر في جماعة من الفرسان الصليبيين ، وتحمله مركب في النيل إلى المنصورة ، تُضْرَبُ فيها الصنوج والطبول ، بينما الأسرى تجرُّهم الحبال والأغلال على جانبي النيل ، وأبناء الشعب من الفلاحين يهلّلون . وسُجِنَ لويس في المنصورة بدار ابن لقمان كاتب الإنشاء ، ويقوم حارس على لويس هو الطواشي صَبيح . ويفتدى لويس نفسه ومن بقي من حملته بأموال وفيرة . ويعود على وجهه إلى بلاده ذليلا مدحوراً . وما تلبث نفسه أن تسوِّل له غزو تونس ، ويسمع بذلك ابن مطروح الشاعر المصري ، فيرسل إليه بوعيد كان يحفظه كل مصري لعصره ، وما يزال يردده المصريون إلى اليوم هازئين بلويس وحملته ، وفيه يقول :

قُلْ لِلْفَرَنْسِيس إذا جئتَــه ... مقالَ صِدْقٍ من قَئُولٍ نَصِيحْ
آجَرَك الله على ما جَــرَى ... من قتل عُبَّادِ يســوعَ المسيحْ
خمســون ألفًا لا يُرَى منهمُ ... إلا قتيلٌ أو أَســيرٌ جريحْ
وفَّقــك الله لأمثــالها ... لعل عيسى منكمُ يســتريحْ
دارُ ابنِ لُقْمــانَ على حالها ... والقيْدُ باقٍ والطَّوَاشي صَــبِيحْ

وكأنما كان حَتْفُ لويس التاسع في أمنيته ، إذ مات على أسوار تونس ، وأسرع جيشه بالعودة إلى دياره . وبذلك أخفقت جميع الحملات الصليبية وعمَّ أوربا اليأس من غزو الشرق ، إذ رأوا دون ذلك حَزَّ الرقاب ، فلم يعودوا يفكرون في حملة جديدة . واستولى منهم الظاهر بيبرس على أنطاكية وطرطوس ويافا ، واستولى السلطان قلاوون على طرابلس ، وخلفه ابنه الأشرف خليل ، فاستولى على عكا آخر حصون حَملة الصليب وكانت لذلك فرحة عظيمة في نفوس الشعب وأبنائه ، عبَّر عنها الشهاب محمود شاعر الشام بقوله :

الحمد لله زالتْ دولةُ الصُّلُبِ ... وعزَّ بالسيف دينُ المصطفى العربي
ما بعد عكَّا وقد هُــدَّتْ قواعِدُها ... في البحر للشِّرك عند البَرِّ من أَرَبِ

والشاعر يحمد الله العلى القدير على نعمه العظيمة ، فقد تطهرت الأرض العربية من رجس حَملة الصليب وأوزارهم ، وانمحت دولتهم إلى غير رجعة ، وعزّ الإسلام عِزًّا ما مثله عز ، فقد سقطت عكا آخر معاقلهم . ورُدَّت إلى ديار الإسلام ، وهكذا ذهبوا وذهبت آمالهم هباء .

وفى أواخر العهد بهذه الحروب الصليبية اكتسح طوفان التتار أواسط آسيا ، وما زال موجه يتراءى ويتدافع . حتى جرف بغداد وقضى على الخلافة العباسية ، كما مر بنا فى غير هذا الموضع . وتعالت أمواجه إلى الشام ، وأخذت تسقط إلى الجنوب ، وخرج إليها الجيش المصرى بقواده العظام ، وعلى رأسه الظاهر بيبرس ، فأوقف السيل ، بل ردَّه إلى قراره ، على نحو ما هو معروف عن موقعة عين جالوت بالقرب من بيسان فى فلسطين ، وسرعان ما انحسر السيل عن ديار الشام جميعها . وظل الظاهر بيبرس للتتار يراقبهم ، فكلما حدثتهم أنفسهم بغزو الشام انقضّ عليهم بجموعه ، وهزمهم هزيمة ساحقة كهزيمتهم فى عين جالوت ، وفى ذلك يقول له الشهاب محمود :

سِرْ حيث شئتَ لك المهيمنُ جارُ ... واحكمْ فطوعُ مرادك الأقدارُ
لم يبق للدين الذى أظهرته ... يا رُكنَهُ عند الأعادى ثارُ
شكرتْ مساعيَك المعاقلُ والوَرَى ... والتُّرْبُ والآسادُ والأطْيَارُ

وهو يقول له إن النصر فى ركابك أينما ولّيْتَ وجهك ، وإن الأقدار تسعفك بكل ما تريد ، حتى لكأنها طوع إشارتك . ولقد رفعت من شأن الدين الحنيف وقضيت على أعدائه القضاء المبرم ، فهنيئاً لك . وإن الحصون التى رددتها على الإسلام والناسَ والأرضَ بما فيها من وحش وطير ، كل ذلك يشكر أياديك . ومعروف أننا لا نصل إلى العقد الأخير من القرن السابع الهجرى ، حتى يدخل فى الإسلام غازان حفيد هولاكو هو وجنوده بفضل المتصوفة الذين تغلغوا فى ديارهم ، وفتحوها للإسلام سلما دون سيف أو رمح . وإنما بكلمة الدين الحنيف الطيبة ودعوته النيرة .

وكان الهجاء السياسى نشطًا فى العصر بمصر والشام . وخاصة فى عصر الدولة

الفاطمية ، لما لجنّت فيه من عقائد شيعية إسماعيلية تخالف مذهب أهل السنة ، إذ مضوا ينشرون فى الناس أن الأئمة يتوالون فى أدوار سبعية ، أى أن كل دور يتكون من سبعة أئمة ، وسابعهم هو الإمام الناطق عن القوى الخارقة ، وهو العقل الفعال ممثول العقل الأول ، وله نسبتان : نسبة إلى عالم القدس ونسبة إلى عالم الطبيعة ، والأئمة الستة قبله ممهدون له ، وهم نفوس كلية تفيض عنه . وكانوا يضيفون إليه صفات الله ، بحجة أنه إلهى الذات! وادعوا له علم الغيب هو والأئمة أو الخلفاء . وكل ذلك كان يضيق به الشعب ، وكان شعراؤه يعبرون عن هذا الضيق بصور مختلفة ، فمن ذلك ما يُرْوى من أن الخليفة الفاطمى العزيز صعد المنبر يومًا ، فرأى ورقة ، مكتوب فيها :

بالظلم والجَوْر قد رضينا ... وليس بالكُفْر والحماقهْ

إن كنتَ أُعطيتَ علْمَ غيْبٍ ... فقل لنا كاتب البِطاقَهْ

ويقول ابن تَغْرى بردى فى كتابه النجوم الزاهرة تعليقاً على البيتين والخبر : «وذلك لأنهم ادّعوا علم المغيّبات والنجوم ، وأخبارهم فى ذلك مشهورة» . والشاعر يسجل فى البيتين ظلمهم للرعية وأنهم يسومونها الجور والخسف ، كما يسجل رأى المصريين فى معتقداتهم التى لخّصنا جانبًا منها ،والتى تصور انحرافهم عن جادّة الدين ، ولذلك ظل المصريون بعيدين عن عقيدتهم ولم تشع بين أبناء الشعب ، وكانوا يسخطون عليهم سخطًا شديداً لتماديهم فى اتخاذ وزراء لهم من اليهود ممن أعلنوا إسلامهم ، وكان المصريون يشكون فيهم وفى إسلامهم ويرون أنهم ابتغوا بإعلان إسلامهم الوصول إلى الوزارة والمناصب الكبرى فى الدولة ، ومنهم يعقوب بن كِلِّس وزير العزيز بن المعز ، ومنهم صدقة بن يوسف الفلاحى وزير المستنصر ، وكان ذلك يملأ المصريين غضبا على الفاطميين ، وصوّر غضبهم أحد الشعراء ساخراً سخرية مرة :

يهودُ هذا الزمان قد بلغوا ... غايةَ آمالهم وقد ملكوا

العزُّ فيهم والمال عندهمُ ... ومنهم المستشار والملكُ

وهى سخرية من الفاطميين قاتلة ، واضطُرَّ المستنصر نزولاً على إرادة الشاعر والشعب إلى اعتقال الوزير الفلاحى ،ويُقْتَلُ ، وتُرد الوزارة إلى أربابها

من كبار رجال الدولة الشيعيين أمثال الجَرْجَرائى والبازورىّ وابن المدبر . وقد كان ذلك سبباً فى سخط المصريين على الفاطميين وانضافت إليه مبادئ عقيدتهم الشيعية الغالية غلوًّا شديداً ، كما أسلفنا ، مما جعل المصريين يكفرون أيديهم عن التعاون معهم ، وجعل شعراءهم يتعرضون لهم بهجاء سياسى شديد . وبالمثل كانت كثرة الشعب فى الشام غاضبة عليهم ، ويكثر الشعراء هناك الذين كانوا يصورون مظالم الحكم الفاطمى ، وفى مقدمتهم أبو العلاء المعرى ، وكان شديد التفكير فى فساد الحكام لعصره ، ولذلك مضى فى جوانب مختلفة من أشعاره يتهمهم فيها بالخسّة ، وأنهم لا يصلحون لحكم الشعب ، من مثل قوله :

يسوسون الأُمور بغير عقلٍ ويَنْفُذُ أمرهم فيُقال ساسَهْ
فأفٌّ من الحياة وأفٌّ منى ومن زمنٍ رياســتُه خساسَهْ

فأخسُّ الناس يتولون حكم الرعية ، وليسوا جديرين بأن يحملوا تلك الأمانة ، إذ يخانونها صباح مساء ، لا يرعون فى الشعب ذمة ولا عهداً ، وإنه ليصرخ باسم أفراده :

مُلَّ المقامُ فكم أعاشر أمَّةً أمرتْ بغير صلاحها أمراؤُها
ظلموا الرعيَّة واستجازوا كَيْدها وعَدَوْا مصالحها وهم أُجَراؤُها

وهو يقول إن الرعية استأجرت الحكام — بما تعطيهم من رواتب — لكى يقوموا على شئونها ، ويصلحوا من أمورها ، غير أنهم لم يتحملوا المسئولية التى ألقتها على كواهلهم ، بل لقد عارضوها ونقضوها نقضًا وعكسوها عكسًا ، بظلمهم وعسفهم الذى لا يطاق ، وكأنما استخدمتهم ليكيدوا لها كيداً أثيمًا . وكان — كبقية أفراد الشعب — يألم لنظام الإقطاع الذى استشرى والذى عم بلاؤه فى اعتصار الأغنياء للفقراء ، غير تاركين لهم من كفاف العيش ما يسد ون به رمقهم ويستر ون به عُرْيهم ويتيح لهم شيئًا من المأوى والمسكن . وجعله الإحساس العميق بذلك يحمل على الأغنياء الذين يبتزّون الفقراء البؤساء فى أشعار كثيرة ، وتارة يسقط عليهم بسياط أشعاره ، وتارة ثانية يستعطفهم ويحاول أن يلين قلوبهم لأبناء الشعب الرابضين فى البؤس والمسغبة ، فالناس جميعًا شركاء فى حياة إنسانية واحدة ،

وكل شخص يقوم فيها بعمل هو جزء من كيانها ، يقول :

النَّاسُ للنَّاسِ من بدوٍ وحاضرةٍ ... بعضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خَدَمُ
وكلُّ عضوٍ لأمرٍ ما يمارسُه ... لا مَشْيَ للكفِّ بل تمشى بك القدَمُ

فالناس جميعًا يخدم بعضهم بعضًا ، وبخدماتهم تقوم الحياة ، إذ كل منهم ينهض بمرفق من مرافقها ، وكل منهم يؤدى منفعة من منافعها ، وكما أن لكل عضو فى الجسد وظيفته كذلك لكل فرد فى المجتمع وظيفته وعمله ، فهو لبنة فى كيانه وحوائطه ، وحرى لذلك أن تتآزر اللبنات وأن تتعاون وأن يمد الغنى يد العون والمساعدة لأخيه الفقير البائس ، وإنه ليعجب من الأغنياء الذين يملئون بطونهم غير مفكرين فى بؤس البائسين وعَوز المعوزين ، يقول :

كيف لا يُشْرِك المضيقين فى النعـ ... ـمة قومٌ عليهمُ النعماءُ

وهو يطلب إلى أصحاب الثراء أن يُشْرِكوا إخوانهم الفقراء فيما منحهم الله من نعمة ، حتّى يخففوا عنهم ما يعيشون فيه من الضنك والبؤس ، بل ما يتجرّعونه من مرارة الفقر وشظف العيش ، بينما هم يتقلبون فى أعطاف النعيم غارقين إلى آذانهم فى أسباب الترف وملذات الحياة ، وإنه ليصيح :

لو كان لى أو لغيرى قَدْرُ أُنْمُلَةٍ ... من البسيطة خِلْتُ الأَمْرَ مشتركا

فأبو العلاء لا يكاد يتصور شخصًا أنعم الله عليه بالثراء يفصل نفسه عن مجتمعه ، بل إن كل ما يملك الإنسان مهما كان ضئيلاً ينبغى أن يكون فى خدمة المجتمع ، حتّى لو ملك قدر أنملة من الأرض لظنه شركة بينه وبين غيره من الناس . وأبو العلاء فى هذا كله إنما كان يعبر عن الجماعة التى عايشها فى عصره ويترجم عن أحاسيسها ومشاعرها ترجمة صادقة .

وكان الشعب حين يباغته موت بطل من أبطاله العظام يبكيه بدموع غزار ويبكيه معه الشعراء ، وممن بكاه الشعب طويلا حين لبىّ نداء ربه صلاح الدين الذى دوّخ الصليبيين وسحق جموعهم فى الشام واستخلص منهم مدنه ، واستسلموا له يعلوهم الصّغار ، فكان حريًّا بالشعب أن يُطيل بكاءه عليه ، وبكاه غير شاعر ،

من مثل العماد الأصبهانى . وله فيه مرثية رائعة يقول فى تضاعيفها :

لا تحسبوه مات شخصاً واحدا ... قد عمَّ كلَّ العالمين مَماتُهُ
لو كان فى عصر النبىِّ لأُنْزِلتْ ... فى ذكره مِنْ ذكره آياتُهُ
فعلى صلاح الدين يوسفَ دائما ... رِضْوانُ ربٍّ العرشِ بل صَلواتُه

والمرثية كلها تفجع شديد على صلاح الدين و بيان لمدى خسارة الإسلام والشعب فيه وعرضٌ لبلائه الرائع فى جهاد الصليبيين ، بلاء استحق به رضوان ربه وفراديس جنانه وإنه لفى أعلى عِلِّيّين . رحمه الله وقدَّس روحه . ونجد الشعراء المصريين قبيل هذا العصر يبكون الدولة الطولونية طويلا ، حتى إذا سقطت الدولة الفاطمية لم نجد أحداً من شعراء مصر يبكيها ، لمبادئها الشيعية الغالية ، التى صورناها فى غير هذا الموضع ، والتى جعلت المصريين ينفرون منها نفوراً شديداً ، وخاصة أنها كانت تردَّت فى مهاوٍ من الضعف والانحلال ، واستولى الصليبيون منها على كثير من المدن فى الشام ؛ فكان الشعب يتمنى زوالها وأن يظهر منقذ يردُّ إلى الشعب قوته وكرامته ومدنه التى استحوذ عليها الصليبيون. ومع ذلك نجد شاعراً فاطمياً يمنياً يرثى الدولة الفاطمية بمثل قوله :

رميتَ يادَهْرُ كفَّ المجد بالشَّلَلِ ... وجِيدَهُ بعد حُسْنِ الحَلْىِ بالعَطَلِ
والله لا فاز يومَ الحَشْر مُبْغِضُكم ... ولا نجا من عذاب الله غيرُ ولِى
بابُ النجاة همُ دُنْيا وآخرةً ... وحبُّهم فهْو أصلُ الدِّينِ والعملِ

وهو رثاء سياسى أراد به إلى ثورة المصريين على صلاح الدين ولكن أنَّى له ؟ ! لقد استبشر المصريون بحكمه وتحققت أحلامهم وآمالهم فيه تحققاً رائعاً . وفى الواقع كانت هذه القصيدة تعبيراً صريحا عن مؤامرة اشترك فيها عمارة مع بعض شيعة الفاطميين ، وهى مؤامرة أدت كما أدت القصيدة معها إلى صَلْبه. ولعل المصريين لم يبكوا دولة بعد الدولة الطولونية كما بكوا دولة المماليك حين قضى عليها العثمانيون ، وكانت قد نهضت بمصر نهضة عظيمة فى العمران والثقافة والحضارة ، فأحسّوا فى زوال دولتهم خسارة لا تعوَّض ، وناحوا عليها نواحا طويلا من مثل قول مؤرخهم ابن إياس :

نوحوا على مصرٍ لأمرٍ قد جَرَى ... من حادث عَمَّتْ مصيبتُه الوَرَى
زالتْ عساكرُها من الأتراك فى ... غُمْض العيونِ كأنها سِنَةُ الكَرَى

وهو يريد بالأتراك المماليك .

وظل الغزل تعبير عاطفة الحب الإنسانية الخالدة يتردد على الألسنة فى القطرين الشقيقين : الشام ومصر ، ونظم شعراؤهما قصائد ومقطوعات منه كثيرة ، تصور ما يمنحه الشعراء ومَنْ حولهم المرأة من عاطفة الحب والود ، كما تصور ما يثير الحب فى نفوس أصحابه من الخواطر والأفكار وما يجنون من ثمرات المودة وزهراتها وما يصطلون من نيران الفراق وما يستشعرون من لوعاته . ومن أروع ما نقرأ من شعر الحب فى الشام غزليات أبى فراس الحمدانى الذى مرَّ ذكره ، وكان فارساً مقداماً ، فخلط غزله بحماسة ملتهبة تميزت بها خاصة رومياته ، ونكتفى بأبيات طريفة ، من مقدمة رائيته الحماسية التى أنشدنا بعض أبياتها ، وقد تغنَّت بها المرحومة السيدة أم كلثوم غناء بديعاً :

أراك عَصِى الدَّمْعِ شِيمَتُك الصَّبْرُ ... أما للهوى نَهْىٌ عليك ولا أَمْرُ
بَلَى أنا مشتاقٌ وعندىَ لوْعَةٌ ... ولكنَّ مثلى لا يُذاع له سِرٌّ
معلِّلتى بالوَصْل والموتُ دونَـــهُ ... إذا مِتُّ ظمآنًا فلا نزلَ القَطْرُ
تسائِلُنى من أنت ؟ وَهْىَ عَلِيمةٌ ... وهل بِفتًى مثلى على حاله نُكْرُ
فقلتُ كما شاءتْ وشاء لها الهَوَى ... قَتيلُكِ ! قالت : أَيُّهم فهمُ كُثْرُ
فقلت لها : لو شئتِ لم تتعنَّتِى ... ولم تسألى عنى وعندكِ بى خُبْرُ
فقالتْ : لقد أزْرَى بك الدَّهْرُ بَعْدَنا ... فقلتُ : معاذَ الله ، بل أنتِ لا الدَّهْرُ

فالحب متقد بين جوانحه ، وهو أبىّ النفس كبير القلب يكتم دموعه وحزنه وشجاه ، إنه فارس يعرف كيف يتجشم مصاعب الحب والحرب صابرا ، وإنه ليعلن إلى صاحبته فى صراحة شوقَه الظامىء ظمأ لا ينتهى إلى لقائها والنعيم بوصلها ، غير آبه بسيوف قومها ولا حاسب لشجعانهم حسابا ، حتى لو لقى الموت فى سبيل لقائه بها . وتفجؤه باللقاء المرموق ، وتسألهَ سؤال العارفة الوالهة بمحبوبها ، ملهوفة على تبين السبب فيما أصابه من نحول واعتراه من شحوب ، ويجيبها :

إنى قتيلك قتيل حبك ، وتجيبه مدلّة : أى قتلاى ، فعشاق كثيرون ومن وقعوا فى شباك غرامى أو تعثروا بها لا يحصون عدًّا . ويقول لها : إنها تعرفه عن يقين . وتأسى لما أصابه من ضنًى ونحول ، وتنسب ذلك إلى الدهر وخطوبه ، ويقول لها : لا تموّهى ، فأنت سبب كل ما اعترانى من ضنًى وعناء .

ويزدهر الغزل بمصر فى أواسط هذا العصر ، وكانت تسعف المصريين فى ذلك فطرتهم الدمثة وما يُطْوَى فيها من لطف ورقة حسٍّ وأيضًا ما يمتازون به من خفة الظل وما يمتاز به واديهم العريض الطويل من سهولة العيش ، وهى سهولة تسربت إلى لغة غزلهم بل إلى لغة شعرهم جميعه ، فجميع أشعارهم تمتاز بسهولة مفرطة ، حتى ليمكن أن نقول إنها كانت خاصة من خصائص الشعر المصرى الوسيط ، غزلا وغير غزل ، سهولةٌ طُبعت بها الروح المصرية والبيئة المصرية ، وهى سهولة تُشيع فى الغزل غير قليل من الرقة والنعومة ، ويُرَى ذلك بوضوح عند ابن سناء الملك ، مما جعله يكثر من الغزل بكفيفة فاقدة البصر إفراطًا فى الدماثة والعطف والشفقة ، وله غزليات كثيرة رقيقة تحملها أشعاره وموشحاته من مثل :

البَدْرُ يَحْكيـــك لولا تجنّيـــك
بالضـــمّ أجْنيك للصَّدْر أُدْنيك

ولا يقل عنه خفةَ روحٍ ورقةً ودماثةً معاصرُه ابن النبيه ، وله أشعار كثيرة كان يتغنى فيها المغنون فى مصر وغير مصر من البلدان العربية ، لعصره وبعد عصره إلى اليوم ، وكأن ما ينظمه كان يلتصق بألسنة المصريين فلا يزالون يتغنون به على شاكلة هذه القطعة التى لا يزال يغنى فيها المغنون والمغنيات حتى عصرنا الحاضر :

أفديه إنْ حَفِظَ الهوى أو ضيّعا ملكَ الفؤادَ فما عسى أن أَصْنعا
من لم يذق ظُلْمَ الحَبيبِ كريقهِ حُلْوًا فقد جَهِلَ المحبّةَ وادّعَى
يا أيها الوجهُ الجميلُ تداركِ الـ صّبْرَ الجميل فقد عَفا وتَضعْضعَا
هل فى فؤادك رحمةٌ لمتيّم ضمّتْ جَوانحُه فؤاداً مُوجَعا

هل من سبيلٍ أنْ أبثَّ صبابتى أو أشتكى بَلْوَاىَ أو أتوجَّعا
إنى لأستحيي كما عَوَّدْتنى بِسوى رضاك إليك أن أتشفَّعا

والأغنية تسيل رقة ونعومة مفرطتين ، وهو يقف أمام محبوبته فى خشوع مفتونًا بجمالها الذى يبثّ الحب والفتنة فى كل نفس ، وإنه ليفديها بروحه حفظت الهوى أو ضيعته ، فقد ملكت عليه مشاعره وفؤاده ، وحتى ظُلْمها له يجد فيه لذة : يجدها لوعته وحرقة قلبه . ويسترحمها لفؤاده الموجع الذى يتفتت ألماً ، ويتمنى لقاءها كما يتمنى شفيعا له عندها ، لعلها ترق له وتحنو عليه ، ويتعثر بالخجل والحياء أن يكون له شفيع لديها سوى رضاها . وكلها معان مفرطة الرقة . ولا يقل عنه فى غزله رقة حِسٍّ ورهافة شعور معاصرُه البهاء زهير على نحو ما نرى فى قوله :

تعيش أنت وتَبْقَى أنا الذى متُّ حَقًّا
حاشاك يا نورَ عينى تَلْقَى الذى أنا أَلْقَى
يا أنعمَ الناس قُلْ لى إلى متى فيك أَشْقَى
يا ألفَ مولاىَ أهلاً يا ألف مولاىَ رِفْقا
لم يبق منىَ إلا بقيَّةٌ ليس تَبْقَى

وكثير من غزل البهاء كان يغنَّى فى عصره وبعد عصره بوطنه وغيره من الأوطان العربية ، وأسلوبه فيه بل فى جميع شعره من الضرب المعروف باسم السهل الممتنع ، وهو فيه أو قل فى لفظه يرفع الحواجز بين لغة الشعر ولغة أهل القاهرة لعصره ، حتى ليقترب من لغتهم قربًا شديداً ، وغاية ما هناك من فروق أنه يُعْرِب كلامه والعامة مصر لم تكن لعهده تعرب كلامها . وهى ظاهرة بدأت فى الشعر المصرى قبله عند ابن سناء الملك وابن النبيه ، ولكنه هو الذى أوفى بها على الغاية ، ولعل القارئ لاحظ أن كلمة « يانور عينى » فى الأبيات السالفة من الكلمات التى تشيع على ألسنة العامة فى مصر . وغزله ملىء — مثل بقية أشعاره — بأساليب العامة وألفاظهم من مثل قوله :

من اليوم تعارفنا ونَطْوى ما جَرَى مِنَّا
ولا كانَ ولا صارَ ولا قُلْتم ولا قلنَا

وقوله :

كلُّ ما يرضيك عندى فعلى رأسى وعينى

وقوله :

كان ما كانَ بيننا وســـــلامٌ عليكمُ

وقوله :

ملّكتهُ روحى ويا ليتَهُ لو رق أو أحسنَ لمّا مَلَكْ

وقوله :

وإنْ كان ولا بُدَّ من العَتْبِ فبالحُسْنَى

وقوله :

إياك يَذْرى حديثًا بيننا أحدٌ فهم يقولون : للحِيطانِ آذانُ

وكلمات : « ولا كان ولا صار » « ولا قلتم ولا قلنا » و « على رأسى وعينى » وشطرا البيت الرابع مما تداوله العامة المصرية إلى اليوم ، وكذلك كلمات : « ملكته روحى » « وإن كان ولا بُدّ » و « للحيطان آذان » وهو مثل تلوكه العامة حتى اليوم . ومن أهم ما يميز الغزل عند البهاء زهير وابن النبيه الوجد المبرح فيه ، ونؤمن بأنهما ومن عاصرهما من الشعراء المصريين استلهموا فى هذا الجانب الشعر الصوفى الذى كان شائعًا على كل لسان حينئذ ، والذى كان يحمل وجداً لا يماثله وجد ، فتقبس البهاء ومعاصروه من هذا الوجد ما أضاء جوانب الغزل الإنسانى عندهم وحماه من السقوط فى وهاد التكلف والتصنع لأصداف البديع كما حماه من أدران الجسد والغرائز النوعية ، فلم تَطّفُ على سطحه إلا قليلا . ويخاطبنا البهاء كما رأينا بصيغ قريبة من صيغ الحياة اليومية لعصره ، إن لم تكن هى نفس هذه الصيغ التى لا تزال تعيش فى عاميتنا . وفى ذلك دليل واضح على تمثل الشعر العربى للروح المصرية تمثلا دقيقًا ، وأنه سعى جاهداً ليلتصق بألسنة المصريين وليصبح الترجمان الطبيعى لكل ما يخالجهم من عواطف ومشاعر وأهواء متباينة .

ولعل مصر لم تعرف عصراً نما فيه الشعر الصوفى نموًّا واسعاً مثل هذا العصر ، وكانت قد هيأت لذلك بقوة الحروب الصليبية والتتارية ، وكان نور الدين

وصلاح الدين والظاهر بيبرس يكثرون من بناء الزوايا للصوفية ، وكانت تسمى رُبُطا جمع رِباط وهو مكان تجمُّع الجند من المتصوفة للحرب . وكانوا يتقدمون فى كل جيش الصفوف حاثين على جهاد أعداء الإسلام نثراً وشعراً . ونجد لكل شيخ صوفى كبير طريقة يتميز بها ومريدين أو تلاميذ يتبعونه ، وعادة كان يرسل بهم إلى البلدان والقرى القريبة والبعيدة ، وسرعان ما يصبح له أتباع كثيرون فى الشعب يرددون أشعاره وتلوكها أفواه الناس من حولهم . وأول من يلقانا منهم بمصر ابن الكيزانى المتوفى سنة ٥٦٠ وكانت له بمصر وسواحل الشام المقاومة للصليبيين فرقة تنتمى إليه تسمى الكيزانية . وكان له ديوان شعر يتهافت الناس على تحصيله لما أودع فيه من الشعر الصوفى الرائع ، وقد روى العماد الأصفهانى فى كتابه « الخريدة » نحو ثلاثمائة بيت من أشعاره ، وكلها تصور حب الذات الإلهية وما يثير الصوفية من أحوال ومقامات ومواجد ، وهى أشعار عذبة سولمة من مثل قوله :

تلذُّ لى فى هوى لَيْلَى معاتبتى ... لأَنَّ فى ذكرها بَرْدًا على كَبِدِى
وأشتهى سَقمى أن لا يفارقنى ... لأنها أودعتْه باطنَ الجسد
وليس فى النوم لى ما عشتُ من أربٍ ... لأنها أوقفتْ جَفْنى على السُّهُدِ
ولو تمادتْ على الهجران راضيةً ... بالهجر لم أشْكُ ما ألقى إلى أحدِ
اللَّوْمُ أشبه بى منها وإن ظلمتْ ... أنا الذى سُقْتُ حَتْفى فى الهوى بِيدى

والصبابة الصوفية واضحة فى الأبيات ، وهى لا تفترق فى شىء عن صبابة العذريين ، بل هى تزيد عليها لوعة وحرقة ، إذ يلذ لابن الكيزانى ذكر ليلى لأن فى مجرد ذكره لاسمها ما يشفى ظمأه ، وإنه ليكتفى به إذ لا أمل له فى اللقاء ، وهو سعيد بسقمه وضناه وسهامه أبدَ الدهر ، راض بالهجران لا يشكو ولا يتبرم ولا يتلوم ، فهو الذى ساق نفسه إلى هذا الحب وآلامه ، بل إن آلامه متاع ما بعده متاع ، ويقول :

يا كاتمَ الحبِّ والأجفانُ تهتكهُ ... وطالبَ العِتْق والأشواقُ تملكهُ
شرطُ المحبَّة أن لا يَشتكى مللاً ... مَنْ قد رأى أنَّ فَرْطَ الحبِّ يُهلكهُ

والصبرُ تحت مذلاتِ الهوى أبدًا عِزٌّ فما منصفٌ فى الحبِّ يتركه
دمُ المحبِّ بأيدى الحِبِّ مبتذلٌ إن شاء يمنعه أو شاء يَسْفكه

فهولا يشكو مللا ولا ألما، بل هو يحب حبًّا نبيلاساميًا يتناسب مع جلال المحبوب وسموذاته، حبًّا يعتصم فيه بالصبر، مهما لقى من عذاب ومهما برحت به الآلام، بل لاآلام ولا عذاب، بل نعيم ما بعده نعيم، نعيم يرضى فيه حتى بالقتل وسفك الدم. ولا قتل ولا سفك دم، وإنما هى لغة المحبين العذريين يستخدمها ابن الكيزانى فى التعبير عن مدى متاعه بحبه الإلهى، ويكثر من تصوير إعراض الذات العلية عنه، وهو مستعر الفؤاد يقول:

يا مَنْ يَتِيه على الزمان بحسنهِ اعطِفْ على الصَّبِّ المشوق التائهِ
أضحى يخاف على احتراق فؤادهِ أسَفًا لأنك منه فى سَوْدائهِ

فنيران حبه تأخذه من كل جانب، وهو أبداً ظامىء متعطش إلى رؤية محبوبه، ومحبوبه معرض عنه، والدمع يجرى فى مآقيه، ويكاد الصبر يطير من صدره، فلا وصال ولا لقاء، بل دائمًا هجر وعذاب، وهو مع ذلك راض بنصيبه، مستسلم لحظه، لا يطلب طبًّا لحبه ودائه، يقول:

اصْرِفوا عنى طبيبى ودَعُونى وحَبِيبى
عَلِّلوا قلبى بذكرا هُ فقد زاد لَهِيبى
طاب هَتْكى فى هواهُ بين واشٍ ورقيبِ
ليس من لامَ وإن أطْ نبَ فيه بمصيبِ
جسدى راضٍ بِسُقْمى وجُفونى بِنَحيبى

وهو لا يطلب طبيبًا، لأن داءه هو نفس دوائه، وهو لا يريد أن يبرأ من دائه، وهو فى الظاهر داء وفى الباطن دواء. والقطعة بديعة فى تصوير مبدأ التوكل على الله عند المتصوفة. وإنما أطلنا الحديث عن ابن الكيزانى لأن غزله الصوفى كان يشيع على ألسنة العامة بمصر لعصره، وكأنه يفصل من نفس لغتهم اليومية، وكان أتباعه بمصر وسواحل الشام ينشدونه فى أذكارهم ومجالسهم طويلا.

واشتهر بعد ابن الكيزانى بمصر ابنُ الفارض الملقب بسلطان العاشقين . وشعره الصوفى فى الحب الإلهى أروع ما خلّف المتصوفة على مرّ العصور فى تصوير الوجد المضطرم والتلهف الظامىء إلى رؤية الذات العلية وهو يتخذ وسيلته إلى ذلك لغة الحب العذرى القاصرة عن الإحاطة بدقائق حبه ، وما أوقد فى فؤاده من جذوة لا تنطفىء نيرانها أبداً ، إلا أن يتحقق له ما يريد من انمحاءٍ فى الذات الإلهية حتى يغيب عن الحس بحياته . يقول :

ما بينَ مُعْتَرَكِ الأحداقِ والمُهَجِ ... أنا القتيلُ بلا إثْمٍ ولا حَرَجِ
ودَّعتُ قبل الهوى روحى لِما نظرتْ ... عيناىَ من حُسْن ذاك المنظرِ البَهِجِ
عَذِّبْ بما شئت غير البعد عنك تجدْ ... أوفى محبٍّ بما يُرْضيك مبتهجِ
وخُذْ بقيةَ ما أبقيتَ من رَمَقٍ ... لاخير فى الحب إنْ أبقى على المُهَجِ

فهو قتيل الحب ، وهو قتل يغتبط به . إذ يتيح له الاتحاد بمحبوبه ، فلا يفصله عنه حجاب الجسد ، وإنه ليتقبّل كل عذاب وكل ألم ووصب فى سبيله . إلا وصَبًا واحداً وألمًا واحداً هما ألم البعد ووصب الهجران إلى الأبد . وإنه ليضرع إلى ربه مخلصًا أن يأخذ البقية الباقية من رمقه وروحه ، حتى ينعدم شعوره بكل شىء إلا شعوره بوجود ربه ، وحتى ينعم نعيمًا باقيًا بهذا الشعور ، وحتى تتم له سعادته بالانمحاء فى الذات الإلهية الأبدية . وما زال ابن الفارض غارقاً فى حبه ، وما زال يصوره بلغة الحب العذرى الضيقة التى تنوء بمعانيه الواسعة العميقة على شاكلة قوله :

تِهْ دَلالاً فأنت أهلٌ لذاكا ... وتحكَّمْ فالحُسْنُ قد أعْطاكا
ولك الأمرُ فاقْضِ ما أنت قاضٍ ... فعلىَّ الجمالُ قد ولّاكا
وتَلافى إن كان فيه ائتلافى ... بك عَجِّلْ به جُعِلْتُ فِداكا
فُقْتَ أهْلَ الجمال حُسْنًا وحُسْنَى ... فبِهم فاقةٌ إلى مَعْناكا
يُحْشَرُ العاشقون تحت لِوائى ... وجميعُ المِلاح تحت لِواكا

ويبدو البيت الأول إنسانيًا ، وكأنه بيت لمحب عذرى يصف محبوبته بالتيه

والدلال . ولكن لا نلبث أن نلتقى فى الأبيات بشذا الحب الصوفى ، فمحبوبه له الأمر فى الوجود كله يتصرف فيه كما يشاء ، ويتوسل إليه أن يعجل بتلفه وهلاكه . وهو لا يريد الهلاك الحقيقى أو التلف الحقيقى ، وإنما يريد انمحاءه فيه ، حتى يستنقذ له روحه من وجودها الأرضى أو الإنسانى ، بحيث لا يصبح له شعور إلا بربه وحبه ، وينعدم فيه كل إحساس بشىء سواه . ويقول إن جماله لا يشبهه ولا يدانيه جمال ، إنه جمال ربانى ، جمال الذات الإلهية الذى ظل شغوفًا به ، متغنيا فيه غناء حارًّا حتى أصبح بحق يحمل لواء العاشقين ، وهو عشق طالما تجشم فيه الأهوال واحتمل الآلام ، حتى ليقول :

هو الحبُّ فاسلمْ بالحَشَا ما الهَوى سَهْلُ ... فما اختاره مُضْنًى به وله عَقْلُ
وعِشْ خاليًا فالحبُّ راحتُه عَنًا ... وأولُهُ سُقْمٌ وآخـــره قَتْلُ
وإن شئتَ أن تحيا سعيدًا فمُتْ بهِ ... شهيدًا وإلا فالغـــرامُ له أَهْلُ
فمن لم يَمُتْ فى حُبِّه لم يَعِشْ بهِ ... ودون اجتناء النَّحْل ما جَنَتِ النَّحْلُ

ولا يريد ابن الفارض أن يعطل طريق العشق الإلهى ويصرف عنه عشاق الصوفيين ، إنما يريد أن يعرفوا أنها طريق عسيرة مليئة بالعقاب والصعاب ، فأولها عناء وضنًى وسقم وآخرها تلف وقتل ، وهو يريد بالقتل لحظات الشهود حين تتجلى على المحب الصوفى الأنوار الإلهية ، ويغيب عن حواسه ووجوده فلا يشعر بزمان ولا مكان ، وإنما شعور واحد يسيطر عليه هو انمحاؤه فى الذات العلية الذى طالما جاهد فى سبيله ، بل طالما تعذب وتألم ، كما يتألم من يجمعون عسل النحل من لسع زنابيره . ولسنا نريد أن نسترسل فى الاستشهاد بأشعار ابن الفارض إنما نعرض أمثلة منها ، وبحق ظل المصريون يشغفون بأشعاره الصوفية منذ عصره إلى اليوم . وكان المنشدون على حلقات الذكر وفى الموالد يكثرون من إنشادها للناس فى القاهرة وما وراء القاهرة. وتجرَّدت فى أثناء الحروب الصليبية والتتارية جماعة من شعراء الصوفية وغيرهم لنظم قصائد بديعة فى مديح الرسول—صلى الله عليه وسلم — بل إن من الشعراء من نظم فى مديحه دواوين مفردة مثل الصَّرْصَرِى الضرير شاعر العراق ، ويقال إن مدائحه فيه بلغت عشرين مجلداً . وهذه المدائح

النبوية الكثيرة التى نُظمت فى العصر ، سواء فى العراق أو فى الشام أو فى مصر لم يكن يُراد بها المديح النبوى من حيث هو ، وإنما كان يُراد بها وضع السيرة العطرة لرسول الله عليه السلام وجهاده لمشركى الجزيرة وفى نشر الإسلام نصب أعين المسلمين ، ليستشعروها فى جهادهم لحملة الصليب والتتار حمية للدين الحنيف وحماه ، وحمية لصاحبه وهداه . ومعنى ذلك أنها لم تكن مديحاً بالمعنى المألوف إنما كانت استنفاراً للمسلمين فى كل مكان ليستخلصوا ديار الإسلام من المعتدين الآثمين ، وليمزقوا جموعهم شر ممزَّق . وأروع هذه المدائح أو قل الاستنفارات عامة قصيدتا البوصيرى الشاعر المصرى : الهمزية والميمية اللتان طبَّقت شهرتهما الآفاق . وكان البوصيرى من أتباع أبى الحسن الشاذلى الصوفى الكبير المشهور ومريديه ، وقصيدته أو قلادته الأولى الهمزية فى نحو أربعمائة وخمسين بيتاً ، وقد سمَّاها « أمَّ القرى فى مدح خير الورَى » وشطَّرها وعارضها كثيرون من بعده ، آخرهم شوقى ، وهو يستهلها بقوله :

كيف تَرْقَى رُقِيَّك الأنبياءُ يا سـماءً ما طاولتْها سماءُ
لم يساووك فى عُلاك وقد حا ل سَنًا منك دونهم وسَناءُ
إنما مثَّلوا صِـفاتِك للنَّا سِ كما مثَّلَ النجومَ الماءُ
أنت مِصْبَاحُ كلِّ فَضْل فما تصـ درُ إلا عن ضَوْئك الأضواءُ

وواضح أن البوصيرى يرفع فى فاتحة قصيدته الرسول صلى الله عليه وسلم فوق جميع الأنبياء الغارقين فى سنا نوره ، والممثِّلين فى كل زمن وعصر صفاته للناس ، متجلية فى كل منهم كما تتجلَّى النجوم فى الماء . وإن كل ضوء فى رسالة رسول ليستمد من مصباحه الخالد ، مصباحه الربانى . ويمضى البوصيرى ، فيصور معجزات الرسول الخارقة ، عارضاً سيرته الزكية مرحلة بعد مرحلة . ويناقش حملة الصليب فى نظرية التثليث واليهود فى نظرية البَداء على الله وما تؤدى إليه من أن علم الله قاصر لا يحيط بالأشياء ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ! ويسجل عليهم قتلهم للأنبياء وعداوتهم للإسلام وكيدهم له منذ ظهوره ونقضهم للعهود التى كانت بينهم وبين الرسول عليه السلام . وهو فى تضاعيف ذلك كله يجسد جهاد الرسول وأصحابه لأعداء الإسلام من المشركين واليهود حتى يدلع الحمية فى

قلوب معاصريه لسحق حمَلة الصليب سحقـًا لا يُبقى منهم ولا يذر . وتلقَّف منه المنشدون على حلقات الذكر لا فى بيئة طريقته الشاذلية وحدها ، بل فى جميع الطرق الصوفية بمصر ، هذه القصيدة ، وأخذوا ينشدونها مترنمين بها ، حتى يستحيل المصريون شواظـًا آدميـًّا يأتى على الصليبيين والتتار جميعـًا . وأهم من هذه القصيدة وأروع القصيدة الثانية الميمية المسماة بالبُرْدة التى بهرت معاصريه ومَنْ جاء بعدهم إلى اليوم ، وقد شُرحت وعورضت مراراً وتكراراً ، وتُرجمت إلى اللغات الفارسية والتركية والأوربية ، وعارضها شوقى بميمية مشهورة له . ولا يزال المصريون إلى اليوم يرددون أبيات بُرْدة البوصيرى من مثل قوله :

أَمِنْ تذكُّرِ جيرانٍ بذى سَلَمِ ... مزجتَ دَمْعًا جَرَى من مُقْلَةٍ بِدَمِ
يالائمى فى الهوى العذرىِّ معذرةً ... منِّى إليك ولو أنصفتَ لم تَلُم
محَّضْتَنِى النُّصْحَ لكنْ لستُ أسمعُهُ ... إن المحبَّ عن العُذَّالِ فى صَمَمِ

ويملك هذا الهوى العذرىّ النبوىّ على البوصيرى كل أهوائه وعواطفه وأحاسيسه ومشاعره ، وكأنما يريد أن يبث الرسول عليه السلام حبه فى أقوى صورة من صور الغرام الظامىء الذى لا تخمد جذوته فى أطواء الفؤاد أبداً. وتحين منه التفاتة إلى نفسه ، ويريد أن يصور تواضعه ، فيتهم نفسه ، وهو اتهام يبتغى به أن يسمو إلى أعلى قمة للطهر ، يقول :

والنفسُ كالطِّفْلِ إن تُهْمِلْه شبَّ على ... حُبِّ الرضاع وإن تَفْطِمْـه يَنْفَطِمِ
وخالفِ النفسَ والشيطانَ واعْصِهِما ... وإن هما محَّضاك النُّصْحَ فـاتَّهِمِ

ويأخذ فى بيان فضائل الرسول عليه السلام ، وكيف أنه يفوق جميع الرسل فى خَلْقه وفى كماله ، ويقول إنه لا يعتقد فيه لا هو ولا غيره من المسلمين ما يعتقده النصارى فى عيسى من ربوبيته . ويردِّد أنه النور السارى فى الكون الذى يقبس منه الرسل جميعـًا ، وكأنه شمس وهم كواكبها ، يقول :

دَعْ ما ادَّعتْه النصارى فى نَبِيِّهم ... واحكُمْ بما شئتَ مَدْحًا فيه واحتكمِ
وانْسُبْ إلى ذاته ما شئتَ من شَرَفٍ ... وانْسُبْ إلى قَدْرِهِ ما شئتَ من عِظَمِ

فكلُّ آيٍ أتَى الرُّسْلُ الكرامُ بها ... فإنما اتصلتْ من نورِه بهم
فإنه شمسُ فَضْلٍ همْ كواكبُها ... يُظْهِرْن أنوارَها للناس فى الظُّلَم

ويصوِّر البوصيرى معجزات الرسول الباهرة ، وفى مقدمتها القرآن الكريم ، كما يصور جهاده وجهاد أصحابه لأعداء الإسلام ، حتى استسلموا عن يَدٍ وهم صاغرون ، متخذاً من ذلك شعاراً لجهاد الصليبيين حتى تمحقهم الجيوش العربية محقًا . ولم تقف تلك القصيدة الرائعة وأختها الهمزية السالفة عند دورانهما فى حلقات الذكر وحفلات الأعياد والموالد ، بل اتسع انتشارهما فى جميع الأوساط المصرية والشامية ، إذ تجرَّدت جماعات من الناس للطواف بهما فى ديار مصر والشام ، منشدة لهما على الطبل والمزمار .

ولم يمثِّل الشعر فى مصر حينئذ الانطباعات الروحية وحدها فى نفوس الشعب وما تثير من حمية للدين الحنيف ، بل مثَّل أيضًا ما اشتهر به الشعب المصرى من ميل إلى الفكاهة وشغف شديد بها ، وهو ميل متأصل فيه منذ العهود القديمة : عهود الفراعنة ، وقد درسنا هذه الظاهرة فى كتابنا « الفكاهة فى مصر » واستعرضناها فيه على مر الزمن . وبمجرد اختلافك إلى أى مجتمع للمصريين فى عصرنا سواء فى أحد النوادى أو فى إحدى المقاهى فستجد الفكاهة على كل لسان ، وخاصة فكاهة النكت وما يتصل بها من التورية التى أشاعتها مصر فى الشعر العربى . وهى تقوم على ضرب من الخفاء إذ تصبح الألفاظ كالأشراك أو الشباك ، يتعثر فيها الناس ، فيضحك من حولهم ، معجبين بالشاعر الذى عرف كيف يَنْصبها . ونكتفى ببعض توريات لابن نباتة ، فمن ذلك أن صديقًا له طلَّق زوجته . وكانت تسمى دُنْيا ، فبادره بقوله :

ظلمتَ دُنْيَاك وطلَّقْتَها ... فرُحْتَ لا دُنْيَا ولا آخره

وطرافة التورية كما هو واضح فى أنها تحتاج يقظة وذكاء ، وكأن الشاعر يسرق المعنى القريب ليؤدى به معنى بعيداً ، ومن ذلك قوله :

ومولَعٍ بفِخـــاح عـِـدَّها وشِـــباكِ

قالتْ لىَ العينُ ماذا يَصيد ؟ قلت : كراكى

والكراكى : طير ، وهو يريد الكرى أى النوم . وأهداه صديق طائفة من الديوك ، فقال يشكره حامداً له هديته :

وصلتْنا ديوك بِرِّك تزهـــو بوجـــــوهٍ جميلةٍ مُسْتجاده
كل عُرْفٍ يروق حسنًا وإنى أرتجى أن تكون (عُرْفًا) وعاده

وعُرْف الديك معروف ، وهو يريد به فى الشطر الأخير ما تعارف عليه الناس من العادات ، قاصداً إلى النكتة . وأهدى إليه صديق آخر تمراً رديئاً فكتب إليه :

أرسلت تَمْراً بل نَوًى فَقَبِلْتُهُ بِيَدِ الوِداد فما عليك عتابُ
وإذا تباعدتِ الجسومُ فودُّنا باقٍ ونحن على (النَّوَى) أحْبابُ

وهو لا يريد فى الشطر الأخير نوى التمر . وإنما يريد النوى والبعد والفراق . وفى كتاب خزانة الأدب للحموى طائفة كبيرة من توريات المصريين فى أشعارهم ، وهى تصور مدى انطباع هذا الجانب الفكه فى الروح المصرية وفى الشعر المصرى .

وجانب ثان فى الفكاهة المصرية هو جانب الهزل ، إذ نرى شاعراً يتحدث وكأنما ألغى عقله ، إذ يعرض بديهيات فى شكل معارف خطيرة . أو يخلّط فى كلامه تخليط الغافلين أو النائمين ، وقد نظم شاعر يسمى ابن سودون ديوانًا فى هذا الهزل سماه « نزهة النفوس ومضحك العبوس » ومن قوله فيه :

إذا ما الفتى فى الناس بالعقل قد سَما تيقَّن أن الأرض من فوقها السَّما
وأن السَّما من تحتها الأرضُ لم تَزَلْ وبينهما أشياء إن ظهرتْ تُرَى
وكم عجبٍ عندى بمصرَ وغيرها فمصرُ بها نِيلٌ على الطين قد جَرَى
وفى نيلها من نام بالليل بَلَّه وليستْ تبلّ الشمسُ من نام فى الضُّحى

وينظم فى مثل هذا الهزل ديوانًا بأكمله .

وجانب ثالث هو جانب المزاح والدعابة ، وقد تصبح الدعابة لاذعة أو ساخرة ،

وممن كان يكثر فى أشعاره من الدعابة والمزاح الشاعر الملقب بالجزار ، وكان يشتغل بالجزارة فعلا ، ومن دعاباته لأبيه ، وكان قد تزوج فى شيخوخته من امرأة متقدمة فى العمر :

تَزَوَّج الشـــيخُ أبى شيخةً ... ليس لها عقـــلٌ ولا ذِهْنُ
لو برزتْ صورتُها فى الدُّجَى ... ما جَسَـرتْ تُبْصرها الجِنُّ
كأنها فى فرشـــها رِمَّةٌ ... وشَـــعْرُها من حولها قُطْنُ
وقائلٍ قال : فما سِنُّها ؟ ... فقلت : ما فى فمها سِنُّ

وفى هذه البيئة المصرية المكتظة بالفكاهة والدعابة ألَّف ابن دانيال ثلاث مسرحيات كانت تمثَّل على مسرح خيال الظل المعروف فى تلك العصور ، وكلها مسرحيات هزلية ، وهى : طيف الخيال ، وعجيب وغريب ، ومتيم . وتدور أولاها على موضوع الخاطبة والدور الذى كانت تلعبه وما كان يحدث فيه من أغلاط فى تبين حقيقة الزوج والزوجة ، ونكتفى بعرض أبيات منها يشكو فيها الزوج فقره وبؤسه شكوى هزلية ، يقول فى تضاعيفها :

أمسيتُ أفقرَ من يروحُ ويَغْتَدِى ... ما فى يدى من فاقتى إلا يدى
فى منزلٍ لم يَحْوِ غـــيرى قاعداً ... فإذا رقدتُ رقدت غيرَ ممدَّدِ
وترى البعوضَ يطير وهْو بريشةٍ ... فإذا تمكَّن فوق عِرْقٍ يَفْصِدِ
والفارُ يركضُ كالخيول تسابقتْ ... من كل جَرْداء الأديمِ وأجْرِدِ
وترى الخنافسَ كالزنوج تصفَّفتْ ... من كل سوداء الأديم وأسود
هذا ولى ثوبٌ تراه مُرَقَّعاً ... من كل لونٍ مثل ريشِ الهُدْهدِ
ولكيفَ أرضى بالحياة وهمَّتى ... تسمو وحَظِّى فى الحضيضِ الأوهدِ

ومما يصور بوضوح صلة الشعر العربى الوثيقة حينئذ بالشعب المصرى وطبقاته الدنيا أن كثيرين من شعرائه كانوا من ذوى الحرف والصناعات مثل ظافر أكبر شعراء العصر الفاطمى وكان حدَّاداً ، ومثل الجزَّار الذى مرَّ ذكره ، ومثل معاصره الحمَّامى وكان صاحب حمَّام ، ومثل معاصرهما الورَّاق الكتبى ،

وللثلاثة جميعًا توريات كثيرة بأسمائهم وحرفهم .

وتلقانا فى الأندلس بأقصى الغرب هذه الظواهر التى تحدثنا عنها فى مصر والشام والعراق والتى فسحت للطوابع الشعبية فى الشعر العربى ، وأول ما يلقانا من ذلك أشعار الأندلسيين فى مديح أمرائهم وبيان بلائهم مع شعوبهم فى حروب الإسبان المسيحيين. ومنذ وطئت أقدام العرب هذه الديار البعيدة ظلت الحروب ناشبة بينهم وبين مسيحيي الإسبان ، وظل الصراع بين الطرفين قائمًا ، وقد فتح المسلمون بلاداً مسيحية أخرى وغير مسيحية ، ولم ينشب بينهم وبين أهلها هذا الصراع الحاد العنيف الذى نشب بينهم وبين الإسبان والذى ظل قروناً متعاقبة متطاولة ، بالغاً أقصى حدود العنف . وطوال هذا الصراع كان الشعراء يصدرون عن روح الشعب فى تمجيد أمرائه وأبطاله فى المعارك الدامية الطاحنة ، وكم من أمير أموى أبلى بلاء حسناً فى عصر سيادة قرطبة ضد أعداء الإسلام والعروبة ، ومن له فى ذلك القِدْح المعلّى عبد الرحمن الناصر ، وقد أحال زمنه الذى امتد نحو خمسين عامًا إلى حروب ضد الثائرين عليه فى الداخل والخارجين عليه من الإسبان المسيحيين ، ولابن عبد ربه أرجوزة طويلة يمجد فيها فتوحه فى السنوات العشرين الأولى من حكمه . وبخاصة فتحه الأول للمنتلون ، وقد ملك فيه سبعين حصناً ، وفيه يقول :

ثم انتحى جَيَّانَ فى غَزَاتِهِ ... بعسكرٍ يُسْعَرُ من حُماتِهِ
فاستنزل الوحشَ من الهضابِ ... كأنما حُطَّتْ من السحابِ
فأذعنتْ مُرَّاقُها سِراعا ... وأقبلتْ حصـــونُها تدَاعَى

ويسعر : يوقد . وأكبر بطل بعده فى العهد الأموى هناك المنصور بن أبى عامر حاجب حفيده هشام المؤيد ، وله أكثر من خمسين غزوة انتصر فيها جميعًا ، ومن أهمها غزوة «شنتياقوب» فى إقليم جِلِّيقِيَّة بأقصى الشمال الغربى لإسبانيا ، وهى من أقدس بقاع المسيحية الإسبانية لكنيستها المسماة باسمها « كنيسة القديس يعقوب » أو « شنتياقوب » التى كان يحج إليها الإسبان . وشهد ابن درّاج هذه الوقعة وهزيمة ملك هذه الأنحاء فيها المسمى بِرْمُنْد ملك جليقية وليون ، وفى ذلك يقول من قصيدة طويلة فى مديح المنصور بن أبى عامر مشيراً إلى انقضاض

الكنيسة وما أصابها فى أثناء الحرب من الدمار .

لقد فصمتَ عُرَى دينِ الضلالةِ من ... رأسِ القواعِدِ ممنوعِ الحِمَى أَشِبهْ
مما اصْطَفَتْ عُبَّدُ الطاغوت واعتقدتْ ... وشيَّد الكفرُ فى الآلاف من حِقَبِهْ
من كل مُهْدٍ إلى أركان بِيعَتِهِ ... ما عزَّ من نفسه فيها ومن نَشَبِهْ
قد طالما أَحْفَتِ الأملاكُ أَرْجُلَها ... فيه وخرَّتْ على الأذقان من رَهَبِهْ
فسُمْتَه جاحمًا للنار ما بقيتْ ... نفسٌ من الكفر إلا وهْى من حَطَبِهْ
يا حُسْنَ مَرْأَى الهُدَى من قبح منظرهِ ... وبَرْدَ أكبادِ حزبِ الله من لَهَبِهْ
وعاذ « بِرْمُنْدُ » منه بالفِرار وكم ... من قبلها عاذ بالأَنْصاب من صُلُبِهْ
مستخفيًا بظلام الليلِ منك فإنْ ... وافاه صُبْحٌ توارى فى دُجَى كُرَبِهْ

ويقال إن المنصور سَوَّى لنفسه من غبار غزواته الكثيرة لَبِنَة وأمر أن توضع تحت رأسه فى قبره تقرباً إلى الله . وتمضى إلى عصر أمراء الطوائف ، حيث تغلب على كل بلد كبيرة فى الأندلس أمير ، وبذلك أصبحت الأندلس أندلسات كثيرة ، وطمع فيها أذفونش ابن فَرْذَلَنْد وغيره من أمراء الشمال المسيحيين ، واستطاع أذفونش الاستيلاء على طليطلة بعد مقاومة عنيفة وكان قد أخذ يغير بجيوشه من البشكنس والجلالقة والفرنجة على بلاد الأندلس ، يخرِّب وينهب ويقتل ويسبى ، كما أخذ يفرض عليها الإتاوات ، مما اضطر المعتمد بن عباد أمير إشبيلية وغيره من أمراء الأندلس إلى استصراخ يوسف بن تاشفين أمير المرابطين فى المغرب كى ينجدهم . ولبَّى يوسف بجيوشه المغربية الدعوة . وعَبر مضيق جبل طارق إلى الأندلس . واجتمعت جيوشه المغربية مع الجيوش الأندلسية فى الزلاقة من إقليم بَطَلْيَوْس ودارت معركة حامية الوطيس بين تلك الجيوش وجيوش أذفونش الكثيفة من الفرنجة والجلالقة والبشكنس ، ودارت على أذفونش وجيوشه الدوائر ، فقُتل منها عشرات الألوف ، غير أنه استطاع الفرار والنجاة ، وفى ذلك يقول عبد الجليل بن وَهْبون :

نَضا أدراعَه واجْتابَ ليـــلاً ... يودُّ لو انَّه فى الطول عامُ
ستسألُك النساءُ ولا رجـالٌ ... فخبِّرْ ما وراءَك يا عصامُ

ونضا : خلع ، واجتاب : لبس . ومن العجب أن ابن تاشفين لم يتابع بجيشه الفتوح فى الأندلس مستأصلا شأفة الأعداء بعد هذا النصر العظيم ، بل عاد إلى بلاده أو دياره . ولكن على كل حال كان لهذا النصر أثر بعيد إذ أخّر ضياع الأندلس نهائيا أكثر من أربعة قرون .

ومن أكبر الأدلة على أن الشعر فى الأندلس حمل الطوابع الشعبية فى تلك البيئة العربية البعيدة أننا نجده يمثل ثورات العامة ضد الحكام حين يجورون عن القصد ، ولعل أول ما يلقانا من ذلك ثورة الفقهاء بقرطبة على الحكَم الربضى أميرها وأمير الأندلس المتوفى عام ٢٠٦ للهجرة ، فقد أكثر الفقهاء فى الثورة عليه من الشعر الذى كانوا ينشدونه وتنشده العامة معهم فى ثورتهم مطالبين الحكَم بتخليه عن الإمارة والسلطان . ومن أكبر الثورات التى حدثت هناك ثورة أهل غرناطة على اليهود ، وكان أحدهم — ابن النَّغْرِلَّة — اتخذه بعض أمرائها من بنى زيرى الصنهاجيين وزيراً له ، فولّى طائفة من اليهود شيعته على أعمالها وخراجها ، فامتلأ صدر أبى إسحق الإلْبيرىّ المتوفى سنة ٤٦١ غيظاً وموجدة ، فنظم قصيدة ملتهبة أشعلت ثورة الغرناطيين على اليهود وابن النغرلَّة ، وفيها يقول :

ألا قُلْ لصِنْهاجةٍ أجمعين ... بدورِ الزمان وأُسْدِ العَرِينْ
لقد زَلَّ سيدُكم زلَّةً ... تَقَرُّ بها أعيُنُ الشامتين
تخيَّر كاتبَـــهُ كافِرًا ... ولو شاء كان من المسلمين
فعَزَّ اليهودُ به وانتخَوْا ... وتاهوا وكانوا من الأَرْذلين
ونالوا مُناهم وجازوا المدَى ... فحانَ الهـلاكْ وما يشعرون

وشاعت القصيدة على كل لسان ، وثارت غرناطة وصنهاجة على ابن النغرلَّة اليهودى فقتلوه . وكانت العامة تردد أبياتها فى ثورتها وتهتف بها وتصيح ، وكأنما فصَلتْ من أفئدتها ومشاعرها وغضبها وسخطها الشديد .

وربما كان أهم موضوع احتدمت فيه مشاعر الأندلسيين على اختلاف طبقاتهم وتمثلته أشعارهم رثاء المدن التى كان يستولى عليها المسيحيون الإسبان ، إذ كان سكانها يرحلون عنها حين يستولون عليها ويخرجون منها باكين عليها

بكاء حارًّا، وهو بكاء شارك فيه الشعراء ، بل شارك فيه جميع الأفراد، مستشعرين العاطفتين : الوطنية والدينية ، واستحالت أسراب كثيرة من دموعهم وزفراتهم شعراً حماسيًّا ، لا يُقْصَدُ به ظاهره من رثاء تلك الأوطان الساقطة فى أيدى الإسبان ، بل يقصد به ما هو أهم من ذلك وأخطر ، يُقْصَدُ به استثارة الحمية فى نفوس المسلمين فى المغرب وما وراء المغرب ، كى يستخلصوا من الإسبان المدن الساقطة ويغسلوا عار جرائم العدو وتقتيله الأطفال والشيوخ والنساء . وكان من أوائل المدن التى استولى عليها الإسبان طُلَيْطلة ، ونجد شاعراً مجهولا يستصرخ المسلمين لاستنقاذها وردها إلى الإسلام وديار ، مستثيراً إلى أقصى حد حميَّتهم لدينهم الحنيف ولعِرْضهم ، متفجعًا أقوى تفجع ، على هذا النمط .

طُلَيْطِلَةٌ أباح الكفْرُ منها ... حِماها ، إنَّ ذا نَبَأٌ كبيرُ
مساجدُها كنائسُ أىُّ قلبٍ ... على هذا يَقِرُّ ولا يَطِيرُ
أُذِيلتْ قاصِراتُ الطَّرْفِ كانتْ ... مصوناتٍ مساكنُها القُصور
خُذُوا ثأْرَ الديانةِ وانصُروها ... فقد حامتْ على القَتْلَى النُّسُورُ

ويمضى صاحب القصيدة فيصور كيف انتُهكت الحرمات والحرائر المصونات صائحًا يا للإسلام ويا للعروبة ، مستثيراً الحفيظة للأخذ بالثأر فى لوعة شديدة. وسرعان مانكَّل يوسف بن تاشفين بأذفونش وجنده ، ولكنه رضى من النصر العظيم بالإياب دون أن يجنى ثماره ويأخذ طليطلة من يد أذفونش وصحبه . والقصيدة شعبية خالصة ، فصاحبها مجهول ويبدو فيها بوضوح أنها تلقائية ، فليس فيها أى تكلف أو تعمل . وأخذت المدن العربية فى الأندلس تتساقط فى أيدى الإسبان، ومع سقوط كل مدينة كان يتعالى صراخ الشعراء والشعب ، باكين بكاء مرًّا . ومن أشهر ما نظم الأندلسيون فى بكاء تلك المدن نونية أبى البقاء الرُّنْدِىّ ، التى نظمها حين استولى فرديناند الثالث على إشبيلية سنة ٦٤٥ للهجرة ، وهو لا يبكى فيها إشبيلية وحدها ، بل يبكى أيضًا المدن التى سقطت فى أيدى الإسبان قبلها ، مثل قرطبة وجَيَّان وشاطبة ومرسية وبلنسية ويتوجه إلى كل مدينة بالسؤال عن أختها باكيًا بكاء حارًّا المساجد التى استحالت كنائس ، ويستصرخ المسلمين من أهل المغرب وغيرهم بمثل قوله :

يا راكبين عِتاقَ الخيلِ ضامرةً   كأنها فى مجال السَّبْق عِقْبانُ
وحاملين سيوفَ الهِنْد مُرْهَفةً   كأنها فى ظلام النَّقْع نِيرانُ
وراتعين وراءَ البَحْر فى دَعةٍ   لهم بأوطانهم عِزٌّ وسلطانُ
أعندكم نبأٌ من أهل أنْدَلُسٍ   فقد سَرَى بحديث القوم رُكْبَانُ
يا مَنْ لذلَّةِ قومٍ بعد عِزِّهِم   أحال حالَهمْ كفرٌ وطغيانُ
لمثل هذا يذوبُ القلبُ من كَمدٍ   إن كان فى القلب إسلامٌ وإيمانُ

ويظل أبو البقاء طويلا يستصرخ المسلمين لنجدة الأندلسيين قبل أن تدمَّر كل قلاعهم وتسقط كل أعلامهم ، وهو استصراخ يكتظ بنيران التياع شديد . واستحالت القصيدة مع الزمن إلى ما يشبه عملا شعبيًّا ، فالأندلسيون يستظهرون أبياتها ، وكلما سقطت لهم مدينة زادوا فيها أبياتًا تصور محنتها ، حتى غرناطة التى كانت آخر معاقلهم وحصونهم هناك والتى سقطت سنة ٨٩٧ للهجرة نجد لها أبياتًا أُلحقت بالقصيدة تصور الفصل الأخير من فصول تلك المحن . وكأنما أصبحت هذه القصيدة ملحمة لصراع العرب المسلمين مع الإسبان المسيحيين نحو ثلاثة قرون ، حاملة لوعات الأندلسيين وحسراتهم على ضياع فردوسهم المفقود .

ويزدهر الغزل فى تلك البيئة كما ازدهر فى البيئات الأخرى ، وكان مما أثَّر فى ازدهاره أن المرأة الأندلس كانت تتمتع بغير قليل من الحرية مما أتاح لها أن تعقد الندوات فى دارها وأن يختلف إليها الشباب والرجال لتبادل الأحاديث الأدبية على نحو ما هو معروف عن ولاَّدة بنت الخليفة المستكفى ، وكانت شاعرة وجميلة خلابة ، فوقع فى أسْر حُبِّها كثيرون فى مقدمتهم ابن زيدون ، وقد استأثر حبها بقلبه وعواطفه ومشاعره ، وبادلته حبًّا بحب مدة ، ثم أخذت تهجره فلا تلقاه إلا من حين إلى حين ، ثم هجرته نهائيًّا . وله فيها أشعار كثيرة تصور هذه المراحل الثلاث ، مرحلة سعادته بالحب المتصل ، ومرحلة رجائه فى عودة هذا الحب ورجوعه ، ومرحلة يأسه وفقدان أمله . وأروع غزلياته ما نظمه فى المرحلتين الثانية والثالثة ، من مثل قصيدته التى يقول فى تضاعيفها :

بِنْتُمْ وبِنَّا فما ابتلَّتْ جَوانِحُنا ... شوقًا إليكم ولا جَفَّتْ مَآقينا
بالأمس كنا وما يُخْشَى تفرُّقُنا ... فالآن نحن وما يُرْجَى تلاقينا
لم نعتقد بعدكم إلا الوفاءَ لكم ... رأياً ولم نتقلَّد غـيره دِينا
والله ما طلبتْ أهواؤنا بَدلاً ... منكم ولا انصرفتْ عنكم أمانينا
لسنا نسمِّيكِ إجلالا وتكرِمةً ... وقدرُكِ المُعْتَلِي عن ذاك يُغْنينا
يا جَنَّةَ الخُلْد بُدِّلْنا بِسَلْسَلِها ... والكَوْثَرِ العَذْب زَقُّومًا وغِسْلِينا

والزقوم والغسلين : طعام أهل النار كما جاء فى الذكر الحكيم . والقصيدة يترقرق فيها حنين رائع كما يترقرق الماء فى الغصن الرطيب ، وهى تصور لوعات محب صادق ، ملأت محبوبته قلبه فُتوناً ، ونعم فى جوارها بحبها إذ صبت إليه كما صبا إليها . أو قل وقع حبه فى قلبها ، كما وقع حبها فى قلبه ، ثم هجرته واصطلى بنيران الهجران المحرقة . وكل أبيات القصيدة على طولها رائعة ، وقد سارت بها الركبان ، كما قال القدماء ، وعارضها كثيرون كان آخرهم شوقى فى نونيته الأندلسية المشهورة . وقد تمثل شعراء الغزل فى الأندلس طوابع الغزل العربى القديم ومقوماته ، حتى العناصر البدوية ؛ إذ يرددون دائمًا ذكر الأطلال والأماكن الحجازية والنجدية وإبل البادية وغزلانها وظبائها وأزهارها وأشجارها ، وكأنهم أرادوا أن يستوعبوا النسيب القديم وما به من حنين يعبث بالنفوس . وليس ذلك فحسب ، فقد استوعبوا وتمثلوا تمثلا بارعًا الغزلَ العذرى العفيف ، بكل ما فيه من طهر ونقاء ولوعة وشوق ظامئ ظمأ لا ينتهى ، وكل ما فيه من عفاف ومن حرمان ومن قمع للغريزة النوعية ، ومن خير ما يصور ذلك قول صَفْوان بن إدريس :

بَدْرٌ لو أنَّ البَدْرَ قيل له اقْتَرِحْ ... أملاً لقال أكونُ من هالاتهِ
صاحبْتُه واللَّيْلُ يُدْنِى تحته ... نارين من نَفَسى ومن وجَناتهِ
وضممتهُ ضمَّ البَخِيلِ لمالهِ ... أَحْنُو عليه من جميعِ جهاتهِ
أوثقتُه فى ساعدىَّ كأنه ... ظَبْيٌ أخاف عليه من فَلتاتهِ
وأبى عَفافى أن أقبِّلَ ثغْرَهُ ... والقلبُ مطوىٌّ على جمَراتهِ

فاعجبْ لملتهبِ الجَوانح غُلَّةً يشكو الظَّمَا والماءُ فى لَهَواتهِ

وصفوان يذكر أنه أمضى مع خالبة لُبِّه الفاتنة ليلةً ، كانت فيها بين ذراعيه ، يضمها إلى صدره وقلبه ، وقد أحاط بها ساعداه المفتولان القويان ، والعفة مع ذلك تمد أجنحتها عليهما ، حتى القبلة حرَّمها على نفسه ، وهو العاشق الولهان الذى تتقد جمرات حبه فى قلبه ، ولا يستطيع لها إطفاء ولا إرواء ، مع أن مياه الحب ليست فى يده فحسب ، بل تكاد تكون فى لهواته ، ولكنه لا يستطيع أن يتجرعها ، عفة لا تماثلها عفة .

وكان مما عمل على نشر الشعر فى الأندلس وذيوعه غزلا وغير غزل نهضة الغناء هناك لا فى الأعياد والمواسم فحسب ، بل على مدار الليالى والأيام . وعن بعض الرواة من أهل المشرق قال : « كنت بمدينة مالقة من بلاد الأندلس سنة ست وأربعمائة ، فاعتللت بها مدة انقطعت فيها عن التصرف ، ولزمت المنزل ، وكان يمرِّضنى حينئذ رفيقان كانا معى يلمَّان من شَعَثى ويرفقان بى ، وكنت إذا جَنَّ الليل اشتد سهرى وخفقت حولى أوتار العيدان والطنابير والمعازف من كل ناحية ، واختلطت الأصوات بالغناء فكان ذلك شديداً علىّ ، وأودّ لو أجد مسكناً لا أسمع فيه شيئاً من ذلك ويتعذر علىّ وجوده لغلبة ذلك الشأن على أهل تلك الناحية وكثرته عندهم » . ومالقة لا تشتهر بالغناء كما اشتهرت إشبيلية ، وكأنما كانت الأندلس العربية دارَ غناء كبيرة . وهى دار أعدت إعداداً واسعاً لانتشار شعر الغزل خاصة . ولم يكن الغزل هناك يغنَّى فى المدن العربية وحدها ، فقد كان يغنَّى فى البيئات المسيحية فى الشمال وخاصة فى بلاطات أمراء الإسبان ، فقد وصف بعض الرواة مجلس غناء عند زوجة شانجة بن غرسية بن فَرْذلند قائلا : إنه كانت فى المجلس عدة قيان مسلمات وأن إحداهن غنت على العود :

خليلىَّ ما للريحِ تأتى كأنما يخالطها عند الهبوبِ خَلوقُ
أم الريحُ جاءتْ من بلادِ أحِبَّتى فأَحْسَبُها رِيحَ الحبيبِ تَسُوق

والخلوق : الطيب . وكأن انتشار الغزل الفصيح لم يقف عند البيئات الأندلسية العربية ، بل تعداها إلى البيئات الإسبانية المسيحية . .

وعلى نحو ما كان الغزل نشطاً كان شعر الزهد وما تبعه من شعر التصوف نشطين

بدورهما، وكان لحياة الفقهاء والنساك أثر فيهما، وعمل فيهما أيضا الجهاد المستمر فى الأندلس ضد الإسبان المسيحيين، مما جعل كثيرين يَزْوَرُّون عن الدنيا ومتاعها طالبين ما عند الله من ثواب الآخرة. فكانوا يرفضون الدنيا كما كانوا يطلبون الاستشهاد، وجعلهم ذلك يعنون بأشعار الزهد المشرقية وخاصة أشعار أبى العتاهية التى تقوم فى جمهورها على النظرة الكونية العميقة فى الحياة والموت، وقد جمع منها ابن عبد البر أكبر محدِّثى الأندلس فى القرن الخامس طائفة كبيرة نُشرت مع بعض أشعار له باسم ديوان أبى العتاهية ولا نكاد نلم بشعر الزهد الأندلسى حتى نرى أثر أبى العتاهية واضحاً فيه من مثل قول الزُّبَيْدِىّ:

تفكَّرْ فى الممات فعَنْ قريبٍ ... يُنَادَى بالرَّحيلِ إلى الحِسابِ
وقَدِّمْ ما تُرَجِّى النَّفْعَ منه ... لدار الخُلْد واعملْ بالكتابِ
ولا تغترَّ بالدنيا فعمَّا ... قريبٍ سوف تُؤْذِن بالخرابِ

ومما يدل على شيوع الزهد هناك أن نجد شاعراً هو أبو إسحق الإلبيرى الذى مرَّ ذكره فى ثورة غرناطة على اليهود ينظم ديوانًا كله أشعار زهدية إلا قليلا، وجميعها وعظ ودعوة قوية إلى رفض اللذات ومتاع الحياة وتخويف من الموت وما قد يعقبه من العذاب الأليم، ومن شعره قصيدة فى ثمانية وثلاثين بيتا جعل قوافيها جميعاً لفظة النار، محاولا أن يخرجها فى كل بيت إخراجا جديداً فى صياغة محكمة على نحو ما نرى فى قوله:

وَيْلٌ لأهل النار فى النارِ ... ماذا يُقاسونَ من النارِ
تنقدُّ من غيظٍ فتَغْلى بهم ... كِمرْجَلٍ يَغْلِى على النارِ
وكلُّهم معترفٌ نادمٌ ... لو تُقْبَلُ التوبةُ فى النار

وتمتاز زهدياته بكثير من الحيوية الدافقة والحرارة، ونحس كأنما يحاول أن ستنقذ نفسه من شهوات الحياة ولذاتها قبل أن ينقذ غيره من سامعيه، حتى نحس أحياناً كأنها عالقة بنفسه، وهو يحاول بكل جهده أن يخلص منها، أو قل كأنما يريد أن يصور الضعف الإنسانى فى الناس، على نحو ما نرى فى قوله:

لو كنتُ فى دينى من الأبطال ما كنتُ بالوانى ولا البطَّالِ
ولبستُ منه لأمةً فَضْفاضةً مَسْرودةً من صالح الأعمالِ
لكننى عطَّلتُ أقواسَ التُّقَى من نَبْلِها فرمَتْ بغير نِبالِ

واللأمة الفضفاضة المسرودة : الدرع السابغ المنسوج نسجاً محكماً . وكان طبيعيًّا أن يكثر الشعراء فى هذه البيئة المحاربة المجاهدة قرونًا طوالا من أشعار المناجاة لله ، وللسُّهَيْلى شارح السيرة النبوية بكتابه « الروض الأنف » مناجاة مشهورة لله ، يقول فيها :

يا مَنْ يرى ما فى الضمير ويَسْمَعُ أنتَ المُعَدُّ لكلِّ ما يُتَوَقَّعُ
يا من يُرَجَّى للشدائد كلِّها يا مَنْ إليه المُشْتكَى والمَفْزع
يا من خزائنُ رزقهِ فى قول كُنْ امْنُنْ فإن الخير عندك أجمعُ
مالى سوى فَقْرِى إليك وسيلةٌ فبالافتقار إليك ربِّى أَضْرَعُ
مالى سوى قَرْعِى لبابِك حيلةٌ فإذا رددتَ فأىَّ بابٍ أَقْرَعُ

ومرَّ بنا حديث عن شعر التصوف فى مصر والعراق ، وطبيعى أن تشارك الأندلس فيه ، وقد شاركت بسهم وافر عن طريق ابن عربى وأمثاله ، وكان أبوه رجلا صالحا ، وتصادف أن تزوج امرأة ورعة ، فأقبل على سلوك الطريق مبكراً ، واتصل بكثير من شيوخ التصوف فى موطنه ، ثم رحل بعد ذلك رحلات متصلة ، جابَ فيها العالم العربى جميعه ، إلى أن ألقى عصاه أخيراً بدمشق وبها توفى ، وله مؤلفات صوفية كثيرة ودواوين مختلفة ، منها ديوانه ترجمان الأشواق وهو يصور فيه وجده الصوفى الذى لا يدانيه وجد ، وكله غزل شبيه بغزل العذريين وما فيه من ظمأ للقاء المحبوب ، غير أنه شرحه شرحا سماه الذخائر والأعلاق من شرح ترجمان الأشواق أحال فيه هذا الغزل إلى رموز صوفية ، ولولا أنه صوَّرها ما استطاع أحد أن يفهمها من ظاهر لفظه ، كقوله :

ليت شـــعرى هل دَرَوْا أىَّ قلبٍ ملكـــوا
وفـــؤادى لو دَرَى أىَّ شِـــعْب سلكوا

حارَ أربابُ الهوى في الهوى وارتبكوا

وواضح أن هذا غزل صريح ، ولو أنه لم يعن بفلك رموز مثل هذه الأبيات بل الديوان كله لكان أولى له ، لأن الأبيات يظل لها اتساعها فى التعبير والإيحاء بمعان غير محصورة . ولعل بيئة لم تكثر من المدائح النبوية كما أكثرت الأندلس وخاصة فى عصورها الأخيرة ، لأنها كانت تتخذ منها مدداً روحياً فى مقاومة الإسبان المسيحيين ، وكان الشعب يكثر من حفظها وتلاوتها وتلاوة الأناشيد الصوفية وأشعار الزهد ، وخاصة زهديات أبى إسحق الإلبيرى الذى يقول فيها ابن سعيد مؤرخ الأندلس فى كتابه المغرب إن للأندلسيين غراما بحفظها .

وفى كتب الأدب والتاريخ والجغرافية أخبار وروايات كثيرة تدل على أن الشعر كان يُنْشد على كل لسان : على ألسنة النساء والرجال ، وقد تميزت هذه البيئة بكثرة من كنّ فيها من الشاعرات مثل ولّادة ؛ ولهن ترجمات فى كتاب المغرب لابن سعيد وفى نفح الطيب للمقّرى ، وهى ترجمات طريفة . ويخيل لمن يقرأ كتاب المغرب الذى وزع فيه شعراء الأندلس على بلدانها الكبيرة وقُراها الصغيرة أنه لم تكد تخلو قرية من شاعر يتغنى لأهلها بشعره ويغنى فيه المغنون . ويذكر ياقوت فى كتابه معجم البلدان أن كل شخص فى مدينة شِلْب كان ينظم الشعر الفصيح ، حتى إن الفلاح السائر وراء محراثه كان إذا أُلْقِى عليه شطر من الشعر أجازه سريعا إجازة بارعة . وكان الجوارى يتقنّ نظمه بدورهن على البديهة ، وقصة المعتضد أمير إشبيلية وجاريته العبادية مشهورة ، فقد سهر ليلة وحسبها نائمة ، فترنم بقوله :

تنام ومُدْنِفُها يَسْهَرُ وتَصْبِرُ عنه ولا يَصْبِرُ

فأجابته على البديهة بقولها :

لئن دام هذا وهذا له سَيَهْلِكُ وَجْدًا ولا يَشْعرُ

وروى الرواة أن ابنه المعتمد ركب فى نهر إشبيلية مع وزيره ابن عمار ، وهو شاعر أندلسى مشهور ، وأُعْجب المعتمد ، وكان شاعراً بما صنعت الرياح بمياه النهر وما حركت عليه من أمواج حركة خفيفة ، فقال على البديهة

« صَنع الريحُ من الماء زَرَدْ » . وطلب من ابن عمار أن يكمل البيت بشطر ثان ، فأرتج عليه . وكانت تستمع إلى حوارهما ، وهما يهمّان بركوب النهر ، جارية من عامة الشعب من الغسّالات فقالت توًّا باسمة : « أى دِرْعٍ لقتال لو جَمَدْ » فتعجب المعتمد من حسن ما أتت به وتأمل فيها ، فإذا صورة حسنة فأعجبته فسألها : أمتزوجة أنت ، فقالت : لا ، فتزوجها وولدت له أولاده الأمراء ، وكان اسمها « الرُّمَيْكيَّة » فتسمت باسم اعتماد . ولعل من الطريف أن نذكر أنه كان بالأندلس شاعر ثرى يسمى ابن الملح بلغ من اهتمامه بالشعر والشعراء أنه لم يكتف بإكرامهم حين كانوا يفدون عليه ، إذ وقف عليهم رَيْع ضيعة له .

وكان بالأندلس ، كما كان بالعراق ، شعراء جوّالون من أهل الكُدْية والشحاذة الأدبية يطوفون بالبلدان يتكسبون بأشعارهم ، مما يدل على تعلق العامة بالشعر الفصيح وأصحابه ، منهم أبو عامر بن الأصيلى ، وكان كما يقول ابن بسام « جوابة آفاق مشحوذ المدية فى الكُدْية » . ومما يدل بوضوح على تغلغل الشعر فى العامة بتلك البيئة أن نجد بين الشعراء غير شاعر من ذوى الحرف مثل يحيى الجزار بمدينة سَرَقُسْطَة ، وكان يبيع اللحم بدكّان له . ويحتشد الصبية والشباب على دكّانه لسماع أشعاره ، ولامه بعض الوزراء — ويسمون فى الأندلس بالحجّاب — على احترافه القصابة أو الجزارة ، فأنشد قصيدة طويلة مبينًا أنها أفضل من الوزارة استهلها بقوله :

تعيبُ علىّ مألوفَ القِصابَهْ ومَنْ لم يَدْرِ قدْرَ الشيء عابَهْ
ولو أحكمتَ منها بعضَ فنٍّ لما استبدلتَ منها بالحِجابه

ومضى يصور كيف تتجمع الكلاب حول العظام والأشلاء التى يرمى بها ، وكيف يفتك فى الأغنام والثيران بصوارمه البتّارة . وكان بجوار أصحاب الحرف من عامة الشعب شعراء أميون لا يقرءون ولا يكتبون ، ومع ذلك يجيدون الشعر ويبرعون فيه مثل ابن جاخ الصباغ البَطَلْيَوْسى ، ويُرْوَى أنه أنشد المعتضد أمير إشبيلية قصيدة افتتحها بقوله :

قطَّعتَ يا يوم النَّوَى أكبادى وصَرَفْتَ عن عينى لذيذَ رُقادى

فأعجب به المعتضد ، وزاد إعجابه به حين عرف أنه أميٌّ ، فجعله رئيسًا للشعراء فى دولته ، وكانت أهم دولة فى الأندلس بين دول ملوك الطوائف .